GHAZI GHEBLAWI

SHORT STORY

غازي القبلاوي

وجه لا يعرف الحزن

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

وجه لا يعرف الحزن / قصص قصيرة عربيّة
غازي القبلاوي / مؤلف من ليبيا
الطبعة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف®
لوحة الغلاف : **فيتسلاف روزوشا / بولندة**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN 978-9953-36-169-X

غازي القبلاوي

وجه لا يعرف الحزن

إهداء

إلى عيسى الذي من دربه رسمت صورة للتضحية والخلاص

إلى مريم التي من جنيها رسمت صورة للجمال والنقاء . .

إلى أبي وأمي

تتمدد على الأريكة مسترخيًا . . تتأمل . . تلاحق الضوء وتبادل اللون ، تتمدد على مساحة حزنك الحزين ، تتأمل تلاحق الألم على مربع من التعقل والجنون . . الجنون ما يحدث . . تلقي بجثتك على أول طريق مليء بالحجارة والموت ، تسمع صرخات الخوف ؛ خائفة من أجساد طرية تخترقها التهابات الحقد القاتلة فتحيلها إلى حمائم من فصيلة الفينيق . . ينتابك الخوف للوهلة الأولى من ثقل الصخرة فوق كاهلك ، ولكن الجموع تدفعك إلى الأمام ، فتتقدم ، تشعر بالأبخرة تخنقك ، لا تراجع . . تحترق عيناك . . لا تراجع . . تندفع القوة بذراعيك . . تتقدم إلى الأمام ، تلقي بالصخرة من أعلى الجبل . . تسقط فوق أسراب الغربان . . تسمع الدوي . . تسقط جثة هامدة تضج بالحياة في بحر من الحجارة والصبيان . . تتمدد على مساحة الأمل النابت بداخلك طفلاً يعانق الشطآن . .

مازلت على الأريكة مستلقيًا . . تضغط على الزر ، يتلاحق الضوء واللون . . يقف هناك في المربع يخاطبك أم يخاطب التكبر والطغيان . . يحمحم ، يخمخم . . يزعق ، ينعق . . تشمئز ، تنتابك نوبة من الغثيان . . تقرر أن تقتله ، أن تجعله يدفع الثمن . . تضغط الزر مرة أخرى ، تشعر أنك قتلت الشيطان . . الشيطان ها هو ، الجن الأزرق يزهو على المربع ، يمشي متبخترًا يعانق من يعانق ويأكل على موائد

السلطان . . الجن الأزرق يغير جلده . . يتلفع بكل الألوان ومن ورائه تنتشر بقعة من زرقة الأموات . . الجن الأزرق هذه الأيام ينتقل من شاطئ إلى آخر وينشر الترهات والأوهام . . تمنع نفسك من الضحك/ البكاء . . ماذا تفعل؟ ، الجن الأزرق يتغلغل . . ما العمل؟ . .

كانت جثتي على الطرقات تغفو . . أتدثر بالراية وإلى المثوى أسير فوق جموع الغاضبين . . استفقت من ذهولي فلم أجدْ حجرًا أرمي به الذي أمامي ، لم أجدْ زجاجة حارقة أفجر بها المربع المتلاحق الألوان ، لم أجدْ إلا حزامًا من البرد والسلام ، وجهازًا صغيرًا بعدة أزرار ، كان الزر الأحمر يبرق ، ينتفض ، ارتعشت يدي ، ارتعش إبهامي . . وحزام النور يشتعل ، وفي لحظة الغضب البدائية الأولى ، في لحظة الحزن البريئة ، كبست الأحمر بعد أن وجهت الجهاز تجاهي . . وانتهى عذابي . . ابتدأ قيامي . . .

ياسمين..

إلى سماح . .

(١)

- هل قررتم التخلص منها . .؟

استفاق من شروده . . امتدت أفكاره نحو صمته الصارخ . . ثم أردف :

- نعم . . ليست هناك طريقة أخرى . .

- ولكن من سيقوم بذلك . . أنا لا أستطيع . . وأنت سيصعب عليك الأمر . .!

- سأطلب من أحد العمّال القيام بذلك . .

ماج التوتر بالمكان . . اتجهت ببصرها إلى تلك الشجرة . . استقام واقفًا ، ليمضي وصوت الارتجاجات على السقف لا يكلّ . .

- لا تحزني . . سأزرع واحدة جديدة . .

- . . . . . .

- أنا ماضٍ الآن . .!

- . . . . . .

سمعت خطواته على البلاط ، ثم صوت الباب يفتح . . عمود من النور يغمر الممر . . ثم يختفي ببطء . . يغلق الباب ، ثم بعد برهة . . يغلق الباب الحديدي بقوة . . تسمع . .

. . . تسمع . . صوت الأسنان وهي تأكل النسغ . . هوت على

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الأرض سنوات البياض . . قاومت الأزهار الذبول حتى الصباح . . الصباح الأخير . . .

***

(٢)

حملت الريح بقايا حطام الأزهار المتيبسة . . عبق البياض يلف دقائق الأيام التي تناطحني بجنون . . أرقام ، واحد ، اثنان ، اليوم العاشر ، العشرون . . أربعة أسابيع . . وعدة وخزات تقطع اللحم الحي لتوصل ما انقطع . . أتحسس موضع الألم فلا أجد ما كان قبل أشهر ، لا أجد ما كنت عليه . . جرح وغرز على طول البطن وثلاث فتحات على الجانبين . . على الأيمن واحدة ، والأيسر اثنتان . . وما كانت يومًا منحوتة الزمن على ولادتي أصبحت خطًا من الألم . . كنت أقول له «أصبحت بلا سرة . . يبدو أنني فقدت دليل ولادتي» . . لا يردْ . . يرمقني من وراء نظارتيه ولا يردْ . قلت له يومًا – لا أدري ربما كنت سأقول له أو ربما– . .«متى يصير للمنزل تعريشة ياسمين . . متى يصير المنزل . . .» . تتدثر الكلمات في عقل الماضي أو الآتي . . عدة غرز وثلاث فتحات . . هذا ما خرجت به بعد أحد عشر شهرًا . . من . . .! فقدت الكلمة . . الحبوب المنومة . . وربما الألم يجعلني أنسى ما سيأتي من أرقام الأشهر المتكررة . . كلهم كانوا يقولون «الحمد لله على سلامتك . .» وكنت أجيب بابتسامة مغتالة وحركة رأس صفراء ربما لتدل على الامتنان أو أتمتم شيئًا . . ثم أنتظر أن ينزعوا الغرز ، ويعصروا الجرح ، علَّ الصديد أو ما تبقى منه يخرج . . «هم قالوا إنها الزائدة الدودية . .» وأنا كنت أعرف أن الدودة التي نخرت أيامي

أحالتني إلى كابوس لعذراء يمد لها الحلم الوردي حبًا للبقاء والاستمرار . . يضع الكحول ليعقم الجرح . . أحبه هذا الكحول . . بارد يمنحني راحة كاذبة ثم يبدأ بعدها الموضع بالاحتراق . . لا يهم . . لا يهم . . قال «الزوجة تذهب حيث يكون زوجها» . . هل سمعت هذه العبارة من قبل . . أم أنها صدى لعصور سحيقة بالية . . أعدّها تلك الدرجات المائلة الزلقة ، واحدة . . اثنتان . . غرزة ، اثنتان ، عشر . . أخطأت . . عشرون درجة . .

هل أخبركم كيف يذبل الياسمين؟ . . يسقط أرضًا ، تتغضن أطرافه المدببة الدقيقة ، تكتسي لون الأديم الداكن . . تلتوي البتلات . . ولا يبقى سوى العطر عالقًا بخلايا القلب . . لينبض برائحة الأمل الذي يحاول أن يُنبِتَ تعريشةً في منزلي الذي أريد .

أتحسس بطني ، فأجده هناك . أتحسس الجرح ، لا أثر . أتحسس واحدة على اليمين واثنتين على الشمال ، لا أثر . أنزل الدرجات الممهدة . . يأتيني عطر الأزهار البيضاء المشربة بالوردي تهطل عليَّ مطرًا دامعًا من مقلتيّ . . تتبعثر الأحرف المنحنية ، تتك ساعة معصمي . . يهزني الحلم . . تهزني يده . . يهزني بكاؤها ، أنزع الحفاظ وألقمه زجاجة الحليب . . أنزل الدرج . . أفتح الباب . . وأسير نحو الشروق ، وينبت الياسمين في خطاي .

***

(٣)

– أتعلمين بأن أول زهرة ياسمين قد تفتحت . .

شعت عيناها بالفرح . . أسرعت إلى الحديقة . . خالية من أية

نبتة إلا من تلك الشجيرة الغضّة . . زهرة صغيرة . .

- انظر كم هي رائعة . . لقد أخبرتك منذ البداية أن تعريشة الياسمين ستكون رائعة . .

- إنها لا تزال صغيرة . . وسيمضي العمر قبل أن تصبح تعريشة . .

- سنعتني بها حتى تصبح كذلك . .

لمستها بحنو . . التقطت عبيرها . .

- هيا بنا . . .

عادوا للمنزل . . أغلقوا الباب . . زهرة ياسمين تسقط هذا الصباح لتمنح الأرض عطر الاستمرار . . زهرة أخرى تتفتح . . إنها البداية . . البداية فقط . .

بـــلا رأس

ما جعلني أبدي استغرابي هذا الصباح لم يكن الظلام الذي عمّ المكان . . ولم يكن فقدي حاستي السمع والشم . . ولكن الذي استغربته أنني حين زحفت حتى وصلت أمام ما اعتقدت أنه المرآة وضغطت زر الإضاءة ، لم أر نفسي ، لم يكن هناك سوى الخواء ، أمر محيرا!! . . سرت إلى باب المنزل لأخرج في صباح ولد ميتًا . . باردًا وكئيبًا . . عتمة اليوم التي ألقت سدولها عليّ أعمتني . . حاولت تحسس عيني ولكن لم يقابلني سوى الفراغ ، عنق مستدق ومن بعده اللاشيء . . متى أضعت رأسي؟!! . وما يثير استغرابي أنني وجدت نفسي أسير في الطريق دون أن أتعثر أو اصطدم بأي عائق . . ولكن متى وأين فقدت رأسي؟؟!! ، إنني أشعر بالجوع دون فم . . أشعر برغبة في الثرثرة وسماع النكات البذيئة والبريئة . . ولكن كيف ومتى وأين فقدت رأسي . . .؟؟!!!

فجأة تعثرت بشيء وكدت أسقط . . ما هذا الذي تعثرت به . . رحت أتحسسه . . يبدو أنه رأس . . من الذي استغنى عن رأسه؟ . . لا يهم طالما أن له عينين وأذنين وفمًا وأنفًا وهو كل ما أريد . . لم أضع الوقت ، ثبتّه فوق عنقي المستدق . . انفجر النور في عينيّ وعدت مبصرًا . . عادت إليّ حواسي . . أخرجت لساني لألعق شفتيّ وأصوات ضجيج العالم المجنون تصل إلى داخل رأسي الجديد ، قد

تبدو الأشكال غريبة بعض الشيء ولكن لا يهمّ . . ما يهمني الآن أنني أملك رأسًا . . تابعت جولتي الصباحية لأكتشف أناسًا بلا رؤوس يتجولون هنا وهناك . . أطفال نساء وشبان ، سائقو السيارات كلهم بلا رؤوس . . ما هذا الجنون لا بد أنني أهلوس وربما كانت العلة في الرأس الذي أضعت . . أسرعت الخطى عائدًا لمنزلي . . قرعت الجرس بعنف . . فتحت لي زوجتي وكانت بلا رأس . . أصابني الذعر . . اندفعت إلى غرفتي . . أغلقت الباب ، أشعلت الضوء . . لا بد من اكتشاف الحقيقة . . وقفت أمام المرآة ولم يكن هناك ما يدعو للاستغراب ، ففي المرآة وقفت صورتي وفوق عنقي رأسي الجديد . . قد تبدو أذناي طويلتين بعض الشيء ولكن هذا ليس بالمهم فهي تفي بالغرض . . رميت بجسدي على السرير واستغرقت في النوم لوقت لا أحصيه . . استفقت على يد تهزني . . كانت هناك تقف ، زوجتي بلا رأس . . غرقت تحت الأغطية ولكنها أصرت على إيقاظي . . حاولت الصراخ وقلت ما يشابه : «اغربي عن رأسي» . . ولكن ما خرج من حلقي لم يكن سوى محض نهيق حاد عنيف . . ودعوت الله أن يحفظ رأسي وجميع الرؤوس . .

حفنةٌ مِنْ قوسِ قُزَحْ

(إلى علاء ، نزار ، خلود . . . ومن تبقى مني)

(١)

. . . وبقية من أمنيات تلوذ خوفَ أن يلحقها الأذى ، صباح آخر لا يريد أن يأتي ، ضوءٌ تائه عبر مساحات الاخضرار بالحديقة . لا سنونوات يهاجرن ، فقط بقايا لصوت يذوب مع الفجر عبر الصومعة . . النوم يستجدي راحته . . تعبره برودة الغد . . برودة اليوم . . يبحث عن تلك البداية هناك قادمة مع الصخب والدخان . .

***

(٢)

الصور تسّاقط . . أحاول جمعها . . أحاول البدء من إحداها ، لا أستطيع . . أكتب ما ينزلق إلى سن القلم حتى آخر ما يعتمل بالقلب . . عند تمام النهاية تلمع بقاياها المحترقة . . بقاياي المترمدة . . من هنا إلى أين؟ لا يدري من كان لا يدري . . سيبقى الغد يتسول الأمس وسيبقى اليوم ، الحاضر يهرق دقائقه وينسج لحظته عند اكتمال المستحيل ، أعرف أنني سأغدو حلمًا . . فتاتًا من ظلام . . حفنة من قوس قزح عند آخر المطر . صخب الأصدقاء وحرقة الحنان المفقود . . آثارنا على ذهب الشاطئ المتيم بالجمال . . صورهم ها هي تتبعثر أمامي يصيبها الجليد بالجدب . . بعد الصحراء جاء البرد وكانوا

فيه ، واحدًا تلو الآخر مضوا . . ومعهم أشعة الشمس الحارقة ومذاق الحميّضة والقيز . . رائحة القندول(*) والربيع الخجول ، عند حافته سفحنا عطر ما لا يعود من الأيام . . أحاول ، نعم أحاول أن أستمر . . لا تكف صورة تلك الليلة عند نهاية الاحتفال عن الانهمار ، وحيدًا كنت غريبًا عن المكان ، شارع مغسول بالزهر والرطوبة . . وآخر العائدين تلوح أضواء سيارته الخلفية عند المنعطف ، أنقل الذراع عند السرعة الأولى ، أمضي ، تمر عند بوابة الفندق العتيق أصوات مزمار ورقصة مشتركة لمن تبقى مني . . أرخي للمركبة العنان . . لا ألحق بشيء . . فقط السرير والوسادة وبقية من أمنيات تبحث عن بقيتها ولا تؤوب . . .

***

(٣)

صوت منبه جهاز التنفس الصناعي يغتال ذلك الجزء من قشرتي الرمادية . . أضغط زر الإطفاء ويظل الضوء الأحمر يومض . . تقف الممرضة عند نهاية الممر : «دكتور لا تهتم به . . أغلق باب حجرتك ونمْ . . إنها الرابعة صباحًا ، خذ قسطًا من الراحة . . سأسهر بجانب هذا الجهاز . . . .» . أبتسم لها ، رغبةً لإخراج شعور بالفرح أو أي

(*) نبات شوكي ينبت على سفوح الجبال ويزهر في الربيع أزهاراً صفراء زكية الرائحة .

إحساس محايد لا طعم له ولا لون . . لا أستطيع . . أترك الجهاز يصيح ، أغلق الباب خلفي . . وحيدًا ها أنذا ، أنتظر قدوم الغد الذي أتى . . الساعات تسّاقط أمامي كالصراصير التي تملأ الحجرة . . أسحقها بلا رغبة لها في أن تعود للحياة . . أشرع النافذة العالية ، أمنح لبرودة الفجر فرصة الاقتحام . . يمتد عبق رطوبة أوراق الصنوبر معيدة الأمل لرائحة التراب الطيني المكسو بأوراقه الإبرية الجافة ، والدخان يتصاعد من الجمرات المتوهجات في الموقد . . طعم الشاي المحترق يسيل إلى المعدة ، استجداءً لمشهد الصباح . . الغابة هنا . . «بيييب . . بيييب . . . بيييب» أعود إلى هنا ، أشاهد خيبتي . . غدًا يوم آخر ينتحر طلبًا للنوم . . وبعده لا يمكنني الجزم به . . يأتي صوته قريبًا ، عبر الهاتف ، من وراء مغربها . .« . . ستأتي في غضون شهر . .» أجيب : «أعلمنا قبل ذلك بقليل حتى نستقبلها» ، «نعم . . . . نعم بكل تأكيد . . . . . .» ، «ألو . . هل مازلت على الخط . . .» « . . . . . .» ، «آه يبدو أن المكالمة ستنتهي ، أراك بخير» ، «أراك . . مع السلامة» . . . لا يغلق هو ، ولا أغلق أنا . . ينقطع الصوت . . أحيل نفسي إلى الأصوات التي تأتي وتختفي . . «أراك» . . صوتٌ آخر : «هل تتذكر جلساتنا بمقهى القصر ، قبيل الامتحانات ، كنت تحب أن تطلب النرجيلة» . . يأتي صوته : «تصور أنني وجدتها هنا عند أطراف المدينة . . .» كان صوته يشي بطعم لا يفارق صورة المرارة . . تنتهي الأصوات وتبقى «أراك» دون بصر . . «بيبب . . . بيبب . . .»

***

(٤)

عند بحيرة . . في منتصف الصحراء . . اسوداد الماء ينذر بلا نهاية القاع . . بحيرة (عين الدبان)(*) . . مرارة وكائنات تشتاق لرؤية الضوء . . .

– إلى أين تصل هذه البحيرة . .

– يقولون إنها عميقة جدًا ، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى نهايتها . .

– إنها مرعبة بالفعل . . هنا في قلب صحراء جافة يخرج الماء مرًا لا يعد بالحياة . .

– دعنا نغطس ، ونسجل أننا سبحنا في الصحراء . .

أصوات تناثر الماء لحظة ارتطام الجسد به . . تنافس على من يحقق أجمل غطسة . . دفء الماء يخدع بالبقاء . . الذباب يحوم ، يولد من هذا المكان ولا يعرف غيره . . يستمر في البقاء هنا حتى لا تحرقه الشمس ، يموت وفي فمه طعم المرارة لا يذوب . .

***

(٥)

رائحة الكماء المشوي على النار ترتفع . . يذوب في الفم . . ساخنًا لذيذًا ، يضع السخان على النار يصب الماء فيه ، يضع ملعقتين من الكاكاو . .

(*) عين الدبان ، أو عين الذباب بحيرة مرة تقع في قلب الصحراء على بعد ٣٠ كيلومتراً شمال غرب مدينة غدامس الليبية

- كاكاو على الحطب ، ترفاس(*) وقيز(**) ، ستكون وليمة رائعة . .

نضحك . .

ربيع آخر ذهب مع بتلات الخشخاش الصفراء . . حفنة من ذلك المكان تنحني عند الغروب . . لن نعود . .

***

(٦)

الصراصير بالحجرة تسحق دون رغبة منها في الحياة . .

***

(٧)

ما تبعثر من أمنياتي اعتراها ما أصاب الذكريات . . جليد حاضر في أقصى العالم وصمت أموات في قارة الصحراء هذه . . أو شهقات المحتضر المتشبث لآخر خلية بالاستمرارية . . ها هو يجري مسرعًا ، يتسلق جدار الحجرة الكابي ، ألحه ، لا أسحقه . . أنام . . لا أستيقظ . . أراني على الأرض الرخامية البيضاء ، المعروقة ، ملتصقًا تنز مني سوائل لزجة ، مُداسًا ، مسحوقًا على الأرض ، أنتظر تساقط الصباح . . .

(*) الترفاس هو الكمأ . فطر ينبت تحت الأرض .

(**) القيز نبات له جذر أرضي مثل الجزر واللفت ينبت في السهول والجبال .

خط أحمر

إلى عادل عزيز . . .

- لقد صدر قرار بالإفراج عنك . .

كلفته هذه النهاية ست سنوات ، خرج حاملاً ثقل السنوات التي مضت ، عمرًا أهدر من أجل أن يصل إلى كلمة واحدة «إفراج» . . أمام باب السجن وجد نفسه يدخل آخر . . سجنًا أكبر ، كانت الحرية طير نورس فقد جناحيه ، مرميًا على حافة البحر ، يتطلع نحو الأفق يريد الوصول إليه . . راحت كلمات السجان تحوم فوقه . .

- بإمكانك المغادرة الآن . . .

كان يلقي كلماته بكل بساطة . . ست سنوات قيد التحقيق . . «ضحية» ، «الوطن» . . ست سنوات كنا ضحايا . . تدور الأفكار في رأسه . . ها هو يخرج شبه إنسان . . تضيع السنوات من أجل أخطاء الآخرين . أخذت الطريق أمامه تطول ووراءه أكوام من السنوات التي احترقت . .

وضع كيسه على الأرض . . تأمل الأفق ، ينبت الأمل داخله ، شجرة ياسمين خجولة . . وصورة للوطن تكبر بداخله بحجم الأمل . . وقف أمام صورة كبيرة . . صورته ، يقف يتطلع نحو السماء بعنجهية . . أخرج فرشاة ومجموعة من علب الطلاء . . راح ينثر اللون الأبيض على الصورة المعدنية الكبيرة ، يمزج الألوان المختلفة فوقها . . بدا منهمكًا في عملٍ طالما حلم به . . كان الخوف قد انتحر تلك الليلة . .

أصوات كلاب تنبح في البعد ، صرير عجلات سيارات تتلاحق . .

- أنت أيها اللعين ماذا تفعل . . . .؟!

- . . . . . .

- أيها الإرهابي . . .!!!

لم يشعر إلا وأيدٍ حادة تتبادله وترميه في حقيبة السيارة الخلفية . . وقبل أن يلفه ظلامها . .

- ستدفع ثمن جريمتك . .

شعت على محياه ابتسامة لامعة وتمتم بصوت خافت ، ردًا على السؤال . .

- كنت أرسمني . .

هناك في وسط الميدان كانت تنتصب اللوحة . . خط أحمر عميق وسط صفحة بيضاء ناصعة . .

الإمبراطور

. . . بحـر داكن يصطخب . . ريح شـمـاليـة تضـرب السـاحل الرمـادي منذرة بعاصفـة عـاتيـة . . منتصف الصيف ، والجو مـازال مضطربًا . . الحصان يسير متئدًا على حافة الشاطئ وآثاره ترسم خطًا متعرجًا حتى بداية الجرف الصخري ، عند انعطافة الخليج . . تمايل الجسد النحيل على صهوة الجواد ، بدا ساكنًا ، لا حراك فيه ، مرخيًا العنان لحصانه يقوده . . بينما عباءته الرومانية الصوفية تحركها الريح في محاولة لانتزاعها . . توقف الجواد . . نزل فارسه بهدوء . . اقترب حتى الماء . . ألقى ببصره نحو البحر المهتاج . . أرخى عباءته من حول رأسه ، مواجهًا العاصفة . . الريح تضرب آثار السنين والحروب المرسومة على وجهه . . تتململ شعيرات لحيته الرمادية الكثة . . عيناه تروم الوصول إلى ما خلف الأفق البليد ، إلى بحرٍ أكثر هدوءاً وألقًا في مثل هذا الوقت . . بحـر في البـعـد تتـألق الشـمس على صـفـحـتـه الناعمة . . . . . قطعت موجة عاتية ، برذاذها الذي بلل وجهه ، سفره في تلك الأبعاد المشعة . . عاد إلى حيث البرد والعتمة . . انسـابت القطرات من خـلال شـعـيـرات وجـهـه لتـصل شـفـتـيـه المتيبستين . . ازدرد القطرات المالحة علّه يزيل المرارة التي علقت بحلقه منذ زمن . . نكس رأسه وتنهيدة حارة تنمو بصدره . . لتخرج صرخة تواجه العاصفة الكالحة :

- أين أنت يا بحر لبدة(*)؟ أين أنت أيها الوطن؟

***

الوحل يزداد . . والبرد يزداد . . الجندي يحث فرسه على الإسراع . . تقترب القلعة . . يتوقف . . يمضي إلى قاعة الحكم . . ينحني أمام العرش :

- ماذا عندك أيها الفارس؟

- مولاي أنا قادم من الشمال . . لقد حدث أمرٌ ما في (يورك)(*) . .

- ماذا حدث؟ هل الإمبراطور مريض؟

- كلا . .!! ولكنه . . لكنه . . .

- لكنه ماذا؟

- مولاي الإمبراطور قد اختفى . . اختفى . .!!

***

سكون الفجيعة ينداح فوق الرؤوس . . صمت العاصفة التي ستأتي تنذر بالخطر المحدق بالأجساد المبعثرة على طول المدى . . سار وليا العهد على رأس الموكب مرتدين ملابس الحداد على (الشديد) ، الذي نهشه الألم في مفاصله وجسمه . . نظر (جيتا) تجاه النعش المحمول على عربة تجرها الخيول . . تذكر الكلمات الأخيرة التي قالها

(*) لبدة : أحد أهم المدن الرومانية على الساحل الليبي وهي مسقط رأس الإمبراطور الروماني سيبتموس سيفيروس (١٤٦م-٢١١م)

(*) يورك : مدينة تقع شمال شرق انجلترا بها أقدم الآثار الرومانية في بريطانيا .

العجوز . . تذكر لكنته الإفريقية التي لم تفارق لسانه رغم السنين الطوال التي باعدت بينه وبين موطنه . . «أنا الآن رجل مسن وعاجز ، إنني أورث لابنيّ مملكة مستقرة إذا أحسنا التصرف أما إن أساءا فسيخسران كل شيء» . . ثم ابتسم بعد ذلك وقال : «دعونا نكمل عملنا . .» . لا يعرف كيف اختفى الإمبراطور وهو في حالته تلك . . كان جيتا برفقته طيلة الوقت . . دمدم . . ما نفع ذلك الآن فالرجل العجوز استحال رماداً . .

***

. . . مضى شهر منذ اختفى الإمبراطور . . بدا أن العثور عليه أصبح من المستحيلات بعد أن خرجت الحملات في الجزيرة البريطانية كلها دون أن تعثر عليه . . كان كمن ذاب من شدة ألمه واختفى عن الوجود . . كل الذي وجد هو حصانه الذي عاد بعد يومين معفرًا برمال البحر . .

– يبدو أننا لن نجد الإمبراطور يا أخي .

كان (كركلا) يتحدث بنبرة يائسة مع أخيه :

– آه . . لو أدري كيف استطاع وهو بحالته المرضية أن يمتطي حصانه ويختفي دون أن يراه الحرس . . أنا السبب لقد كان تحت رعايتي . . فقط لو أعرف أين اختفى أو ما الذي حدث له . .

أردف (جيتا) :

– بعد شهر من البحث . . ومع مناوشات قبائل الشمال . . أرجو الآن أن نجد حتى جثته .

– ما الذي تقوله يا كركلا . . جثة من تقصد . . أبونا لم يمت . .

وحتى إن حدث ذلك ، فلا يجوز لك قول ذلك . .

- يجب أن نجد حلاً وإلا ضاعت الإمبراطورية . . إن وراءنا روما تنتظرنا . . ثم .

- هذا كل ما يهمك الحكم والإمبراطورية . . أحيانًا أحس أنك لست ابن الإمبراطور . .

- ماذا تقول أيها الوغد . .!

أمسك كلٌ من الأميرين بتلابيب الآخر وكادا يشتبكا ، كما في أيام نزقهما الطفولي . .

- سيدي ولي العهد . . هناك أخبار من يورك !!

صاح الحاجب الذي اقتحم عليهما المكان . . اعتدل الأميران وصاحا معًا :

- ماذا لديك أيها القائد؟

وقف الفارس مرتعدًا يضغط عليه وقع الخبر الذي يحمله . .

- سيدي . . لقد وجدنا . . وجدنا جثة في أقصى شاطئ قبل الأسوار الامبراطورية . .

- جثة . . جثة من؟

- لا ندري ، ولكنها كانت متفسخة وقد نهشتها أسماك البحر . .

- وماذا بعد؟ . .

- وجدنا شيئًا معلقًا في رقبتها .

- وما هو هذا الشيء؟

أدخل قائد الجند يده في جرابه ليخرج قلادة مبللة ومدها للأميرين الواقفين . . أمسك جيتا بها فما كان منه إلا أن أسقطها . . وتلاشى من القاعة . . أما كركلا فحدق إلى تلك القطعة المعدنية

والتي تحمل نقشًا لإله الحظ . . لقد كان الإمبراطور . . الإمبراطور وحده يحملها دائمًا . .

***

بدا أن الطريق إلى المثوى الأخير لن تنتهي . . وبدا أن القصة لم تبدأ بعد . . كركلا يسير باعتداده على رأس الموكب متأملاً الزرقة الأفقية البعيدة ، حالمًا بروما جديدة تستقبله . . روما الحمائم والأقواس والقصور المرمرية . . روما النصر والعزة . . ألقى ببصره على النعش . . «أخيرًا انتهيت أيها العجوز . . أصبحت لا شيء ، أمجادك التي لم تتخل عنها حتى آخر لحظة من حياتك الصاخبة أصبحت لي أنا . .» هبت نسمة باردة على صاحب الرداء الفرنسي . . هفت إلى روحه أمجاد وأحلام . . كانت الأرض أمامه ممتدة بجرار النبيذ المعتق والنساء الجميلات . . لكن ما أزعجه ، رائحة كريهة لرماد مازال يحترق . .

***

نفاذة وخانقة كانت رائحة الجثة المتفسخة التي جيء بها إلى القلعة ذات غسق حزين . . لم يستطع جيتا أن يتأمل الجسد المهترئ أو ما تبقى منه . . سجي الجثمان في غرفة الإمبراطور . . تم إعداد مراسم تشييعه إلى روما . . وإلقاء النظرة الأخيرة .

اقترب كركلا من الجسد . . ورغم أن دلاءً من العطور قد دلقت إلا أن الجو ظل عابقًا برائحة غريبة ألقت على المكان مشاهد للموت . . وقف بالقرب من الجثمان . . امتدت يده لكشف الغطاء . . راعه ما رأى ، وجهًا صار جمجمة يعلوها بعض اللحم ، أسنانها المهترئة بارزة . .

«لقد أصبحت جثة نخرة أيها العجوز . . ها أنت الآن لم تعد تستطيع حتى أن تتعرف على نفسك . . لقد انتهيت . . لم يعد ينفعك إلهك ، لم يحمك إله حظك الذي كنت تحمله حول رقبتك . .»

اقترب كركلا من الجمجمة وراح يتكلم بسخرية كأنه يهمس في أذنه . .

«ربما نجوت في ذلك الزمن . . لقد قال لك المنجمون إنك ستموت على ظهر حصانك ولكنك لم تمت» . أمسك كركلا بالجمجمة المهترئة . . واستمر في مناجاته المجنونة . .

* هذه الجمجمة لم تتحطم في ذلك اليوم ، وحتى بعد أن كسرت لم تمت ، ولكن ها أنت الآن مجرد عظام وبقايا لحم خرب متعفن . . نعم أنت الآن . .!!»

اتسعت عينا كركلا وهو ينظر ناحية الجمجمة التي يمسكها بين يديه ، اقترب منها أكثر ، تراجع للوراء وأمسك بقنديل قربه من الوجه أو ما تبقى منه . . تراقص الظل على تضاريسه المتفسخة . . لا . . اقترب بوجهه من أعلى الجمجمة تحسسها بأصابعه . . كانت صرخات الفجيعة تعلو داخله لكنه أخمدها . . جمدت ملامحه . . شعت ابتسامة على الوجه البارد . . التفت متراجعًا نحو الباب وأغلقه خلفه وأمر الحرس بأن لا يدخل أحد الحجرة الإمبراطورية . . مضى بخطىً واثقة عبر الممر الحجري . وراء الباب كانت النيران تتراقص وتلعب لعبتها الجحيمية ، ولم تخرج من خلفه إلا رائحة لحم يشوى . . وأنّات روح تحتضر . .

***

تقترب الشمس من مغيبها . . رحلة نحو الأعماق البعيدة للأفق ، الجنود يسيرون عبر شوارع المدينة الصغيرة . . المدينة التي لا تزال تتذكر المشاهد الأخيرة للصراع النهائي على العرش . . المدينة التي سقط فيها رأس كركلا وهو يستقبل أول أيامه في هذه المستعمرة نحو المجهول . . كان جيتا قد خرج عند أطراف (ليون) يستريح من عناء السفر ، ويلقي بناظره نحو الجبال المتلفعة بالبياض . . وهي تتحول إلى نيران وردية مع هذا الغروب القصير للشمس . . أما كركلا فكان يحتفل بوصوله إلى موطن ولادته ، ترجل جيتا عن حصانه المطهم ، وسار مسافة بين الوديان المتصخرة . . وقف متطلعًا إلى الألب ، مستشفًا من خلاله معالم روما الوطن والمستقر ، والتي لم يعتبرها الامبراطور كذلك . .

لقد كان يقول وطني هناك عبر هذه الزرقة . . ردد في آخر أيامه أنه يتمنى أن يترك الحكم ليرجع إلى تلك المدينة المتخلفة في أفريقيا ، ليعود لمهنة أبيه ، صيادًا . يرجع عند المساء ليشوي سمكاته البسيطة . . لكنه عبر ذلك البحر ليجوس أوروبا فآسيا ، وعبر هذا الأبيض الشامخ إلى (ليون) ليجلس على العرش الإمبراطوري ، كم كان ذاك العجوز شرسًا في قتاله . . كان فيه عناد الأفريقي وصبر الصيادين . . ولكنه في لحظات الصفاء والهدوء يجلس عند الشرفة ، متطلعًا نحو الأفق البحري ، صانعًا خيالات لمدينته الأم . . حالمًا بانتهاء حياته فيها . . ولكن حياته انتهت بأبشع مما تصور . . نعم قد تكون انتهت في البحر بين الأسماك ، لكنه انتهى مجرد جثة خربة . . ثم رمادًا تذروه الرياح ، وأين في أقصى مكان في العالم ، هناك في الشمال حيث البرد بحر من رماد والكآبة ليلة سوداء ، كانت

الجبال كتلة من الرمادية المقبضة تنذر بالمستحيل . . عاد أدراجه صوب المدينة . . يرقى إلى سمعه صراخ الأحياء وعذابات الاحتراق .

***

«لقد كان الحريق رهيبًا . . يبدو أن الريح قد أسقطت أحد القناديل فأحرق الحجرة الإمبراطورية» ، هكذا فسر الحرس ما حدث في الليلة السابقة عندما تحولت الحجرة التي يرقد فيها الجثمان ، إلى كتلة من الفحم وذرات من الرماد . . لم يتبق من تلك البقايا البشرية ما يمكن أن يسع إناءً متوسط الحجم . .

اقتحم جيتا حجرة كركلا بعنف . . انتفض من مرقده ، بينما هرعت الجارية المتلفعة بردائها مسرعة خارج الحجرة . . وقف جيتا بالقرب من فراش أخيه المسترخي باطمئنان .

– قل لي الآن ما الذي حدث ليلة البارحة؟

– وما الذي حدث؟

– . . . . . .

– أتقصد ذلك الحريق ، يبدو أن أباك ، حتى وهو جثة هامدة ، لم يعد ينفعه إله حظه الذي كان يؤمن به . .

رد كركلا ببرود ، وهو يجلس على حافة السرير أمام الموقد تلفح حرارته جسده العاري . .

– لقد احترق الإمبراطور ، ولم يعد منه ما يمكن دفنه . . ألا تفهم معنى ذلك . .

– الإمبراطور ، الإمبراطور . . لم يعد هناك أي إمبراطور ، لقد مات ، تفتت ، احترق . . ترمد . . ألا تفهم أنت معنى ذلك .

صاح كركلا بنزق وهو يضع على جسده الأبنوسي عباءته

الأميرية وينتعل خفه . . اقترب جيتا منه . .

– أخبرني ، إنني أشك في أن هذا الحريق كان مفتعلاً . . ألم تكن أنت آخر من خرج من الحجرة ليلة البارحة . .؟

– . . . . . .

– لا تريد أن تجيب . . أيها الجبان . .

استل جيتا سيفه واندفع نحو أخيه يطرحه أرضًا . . دون أن يبدي كركلا أي مقاومة تجاه ذلك . .

– ماذا تريد أن تعرف . . ها . . أتريد أن تعرف الحقيقة . . حسنًا . . أنا من أشعل النيران بالأمس ، ولكني فعلت ذلك من أجل الإمبراطور . .!

– وكيف ذلك أيها الكاذب؟

– وهل تعتقد أنه بإمكاننا أن نعود إلى العاصمة بجثة قد نهشتها الحيتان . . أيليق هذا بالإمبراطور العظيم . .!

– لا تحاول تبرير جريمتك . . لطالما كنت تكرهه وتنتظر ساعة غيابه ليخلو لك الأمر . . ولكن هيهات . . فأنا لك بالمرصاد . . فلتحذر مني يا باسينوس . . فلتحذر .

ارتخت ذراع جيتا التي تحمل السيف المسلط على عنق أخيه ، واستدار خارجًا من الحجرة . . بينما رائحة الدم تنبعث من النصل تبحث عن روح أخرى لتجتثها . .

***

غسلت الدماء روما . . هذه الأعمدة الرخامية ، والأقواس المرمرية . . تحولت عبر تاريخها الطويل إلى سجل للدماء التي امتدت على مساحتها . . وعلت رائحتها السماء ، كانت العاصمة تستعد لأن

تبدأ حقبة جديدة . . دخل الموكب الإمبراطوري تسبقه رايات الحداد على الإمبراطور الفقيد . . واتجه الموكب وعلى رأسه الأميران . . إلى (السبتيزوديوم) القوس الرخامي الضخم الذي بناه الأفريقي تخليدًا لفتوحاته في آسيا الوسطى ضد الفرس ، مر الموكب عبر القوس ليسجى النعش تحته . . انفض الحشد . . في مجلس الشيوخ عقدت جلسة ليتم تنصيب الحاكم الجديد . . لكن كركلا منع الجلسة من الانعقاد ، وأمر الشيوخ بالعودة لمنازلهم وعدم ممارسة أية أعمال سياسية ، وإلا سيتعرضون للقتل ، كما منعت كل الخطب والتعليقات في مجالس المدينة . . وامتد على بياض الرخام ، رمادية ضاربة إلى السواد ، تلبدت السماء بالغيوم الحمراء المحملة بالغبار . . تساقطت في ذلك اليوم أمطارٌ حارة ، متربة مائلة للاحمرار كأن الدماء تنزل من السماء . .

وقف كركلا في الشرفة يتطلع إلى هذا الجو الدموي . . يتطلع إلى المدينة وهي تكتسي بالرمال الحمراء وكأنها تحترق من جديد . . وكأن نيرانها لم تخمد . . حدث نفسه : «اليوم يجب أن ينتهي كل شيء . . يجب أن يصبح كل شيء لي . . أنا وحسب . .» . توجه إلى غرفته علّه يستريح من عناء هذا السفر المضني . . .

- يبدو أن هذا الجو يعجبك . .

اعترضه جيتا وهو يسير في الممر ، كان لا يزال بثياب القتال المغبرة . .

ابتسم كركلا وأردف متهكمًا بالقول :

- جو رائع . . حتى إنني فكرت في الخروج للتنزه بالمدينة . . أتريد أن تأتي معي . .

دخل الاثنان الحجرة . . صاح جيتا :

– ما هذا الذي تفعله . . أنت تعيد الأخطاء نفسها التي ارتكبها أبونا الإمبراطور ، كيف تعطل مجلس الشيوخ الذي نستمد شرعيتنا منه ، أتعتقد أنك بذلك . . تحل المشاكل التي تعصف بالإمبراطورية . . ثم أليس من الواجب أن تطلعني على هكذا قرار قبل أن . . .

التفت كركلا ، وصاح بغضب :

– اسمع . . لقد سئمتك . . لقد كان أبي حكيمًا عندما قتل وسجن تلك الحشالة المسماة مجلس الشيوخ . . إنهم ليسوا أكثر من عجائز لا تهمهم سوى بطونهم وحفلات الخمر . . ما فائدتهم؟ . . ألم يحكم والدنا الإمبراطورية لأكثر من عشر سنوات من دونهم . . وما الذي حدث؟ لقد استقرت أركان الدولة . . ما نفعهم ما دمت أستطيع أن أحكم لوحدي . .

اتسعت عينا جيتا واقترب ممسكًا أخاه من رقبته . .

– لقد أوصى أبونا أن نحكم هذه الإمبراطورية نحن الاثنين ، أنت بصفتك إمبراطورًا ، وأنا القيصر والقنصل الأول ، فلا تقل إنك تحكم لوحدك وإلا فستندم . . ومنذ الغد يجب أن يعود المجلس لممارسة مهامه ، ويجب أن تعود المؤسسات كافة والقوانين المعطلة للعمل . .

حرر كركلا نفسه من قبضة أخيه وألقاه أرضًا . . سقط الصمت مغشيًا على المكان . . ومن وراء الباب كانت الفجيعة تستعد لأن تبني قبرًا من الطين لروح تائهة أخرى . . وقف جيتا ومضى خارجًا من الحجرة ، وقبل أن يفتح الباب . . قال له كركلا وهو يضحك بعنجهية :

– عزيزي جيتا . . اذهب لتستريح من عناء السفر . . وفي كل

الأحـوال أنا آسف لأن أقـول لك إن مـا تقـوله لن يحـدث فـأنا الإمبراطور ، الحاكم الأوحد . . الإله . . أنا فقط من يأمر هنا ، ويجب عليك أن تتعايش مع هذه الحقيقة . . اذهب لتنام أيها العزيز . . اذهب . .

سدد جيتا نظرة تنضح بالموت امتدت حتى بؤبؤ كركلا ، ليخرج بعدها من الحجرة . .

وقف كركلا أمام النافذة . . يسمع الباب يغلق . . استمر المطر الدموي بالتساقط تلك الليلة . . وعند الصباح كان للأرض لون الدم ورائحته وطعمه . .

***

امتد الأفق أزرق داكنًا . . فجر بدائي لعودة الحياة . . صمت الأمواج على حواف الرمال الرطبة . . تمتد لتقف ثم تتراجع . . تمتد حتى القدمين العاريتين . . تتراجع تاركة إياها مبللة لتجف مخلفة خطوط الملح والرمل . . أصوات الأطفال تأتي من وراء الأجمة القريبة . . لعب البراءة ونزقها يقتلان الماضي المؤلم . . يتسابقون في الشوارع المبلطة . . يلعبون . .

- لنختر من سيكون إمبراطورًا لهذا اليوم . .

وآخر . . .

- لقد جاء دوري ، كلٌ منكم أخذ نصيبه

- وليكن كذلك . . فليحيا الإمبراطور . .!!

صاح الآخرون وهم يرفعون الطفل الذي كان أقصرهم وأضعفهم بنيةً . .

- عاش الإمبراطور . .!!

ساروا به تجاه القوس ، وقفوا تحته ، أجلسوه على مصطبة رخامية . . وصاحوا من جديد . .

– عاش الإمبراطور . .

خفتت الأصوات . . تباعدت . . طغى صوت الموج المتلاطم على الرمال الذهبية . . كان القارب يقترب ، نزل شيخٌ لا تستره سوى قماشة على وسطه . . ينز عرقًا وملحًا . . نزل على الشاطئ يحمل على كتفه رزق هذا اليوم . . بضع سمكات اصطادها . . ألقى بحمله على الرمال . . وقف مرسلاً بصره شمالاً . . الشمال البعيد . . الشمس في مغيبها . . عوالمه السابقة المندثرة . . تمتم بصوت خافت . . هامسًا للريح . . «أخيرًا يا بحر لبدة . . أخيرًا!» .

تنفس بعمق . . استرخى ، حمل صيده . . ومضى إلى المدينة . . تلاحقه أصداء الأطفال في لعبتهم يصيحون . .

«عاش الإمبراطور . . عاش . . عاش . . عاش . . .»

الحبـــال

تقول الحكاية : «في زمن غريب بعيد ، تراهن أحد الإقطاعيين الكبار مع أحد ملاك الأراضي الصغار ، كان الإقطاعي يملك أراضي شاسعة ، ويعمل عنده من العبيد والسخرة الآلاف ، حتى إن ملاك الأراضي المجاورة كانوا يهابونه ويتجنبون الاحتكاك به . . وفي أحد الأيام . . تراهن على أنه سيبين لجاره الضئيل أن صنفي البشر والحيوانات على هذه الأرض هما طوع أمره . . وضرب الموعد . . وجمع الناس لميقاته . . في ساحة عديمة اللون ، وقف المئات منذ الفجر ، وتآمرت الشمس مع الإقطاعي فبقيت في كبد السماء لأكثر من ساعتين إضافيتين ، وغابت بعد منتصف الليل . . وقف بكامل زينته . . وبدأ بصفع البشر بكلماته الثقيلة الحادة . . وقبل أن ينتهي القمر من ليلته . . توقف عن الكلام . . وقال وهو يلقي بنظرة ماكرة تجاه جاره الضئيل : «أيها الأعزاء . . امتنانًا مني لكم . . وعرفانًا بالجميل . . لأنكم تستمرون في الحياة من أجلي . . قررنا . .» ، وعم الصمت . . «قررنا أن نشنقكم جميعًا مع شروق الشمس القادم» ، اختفى القمر . . وفي العالم الآخر ومن وراء الأفق الشرقي ، قررت الشمس ألا تطلع هذا اليوم . . ابتسم الإقطاعي . . إذ لم يجد من يعترض على قراره . . أما جاره الضئيل فتصبب عرقه وشعر به يسيل بين فخذيه ، لمجرد تذكره ، أنه تراهن على نصف أراضيه في حال

خسارته تسمر الناس ، ونكس الجميع الرؤوس وإمعانًا في كسبه راح يقول : «أيها الأصدقاء سأكون عفوًا معكم ، فمن كان لديه أي اعتراض فليقله الآن وسأستمع إليه بصدر رحب» . . . ابتسم من جديد وحلم بأشجار النخيل والعنب ورائحة الفل . . قطع أحلامه الوردية . . صوت أتى من آخر الجموع . . أحدهم كان يقفز من الخلف . . بدا أنه أحد المحتجين . . أفسح له الجميع الطريق ، راح يسبح فوقهم ، محاولاً الوصول إلى المقدمة ، أن يقترب من المنصة . . تمتم الإقطاعي : «من هذا المجنون ، والله ليكونن أول المشنوقين» . . وصل الرجل النحيل القصير السقيم . . لاهثًا مادًا لسانه . . وقف أمامهم . . وقال : «أيها الكبير . . يا ولي نعمتنا . . عندي سؤال واحد صغير إذا سمحت» . . تلعثم الإقطاعي وقال له : «قل ما هو بسرعة؟!» ، التقط الرجل أنفاسه ثم همد في مكانه ونظر بعينين يملؤهما الإصرار والتحدي وصرخ : «نريد أن نعرف من سيوفر الحبال . . نحن أم أنتم؟!!!»

أصفعكم وأمضي..!

الفجر الذي ولد هذا اليوم لم يمنحني سوى العفن ، أو هذا ما جعلني أستيقظ من نوم عميق لم يستغرق سوى ساعتين وربما أقل . . النتانة والرائحة الكريهة التي ملأت الحجرة أخرجتني من الفراش الذي قد يكون نام عليه أحد الإيطاليين ، أو ربما كان المثوى الأخير لأحد المتألمين . قفزت متوجهًا نحو الباب الذي فقد في أحد معاركه زجاج نافذته الصغيرة المستطيلة في أعلاه ، فاستبدلت بقطعة من الورق المقوى لتحجب الضوء والهواء البارد والأعين المتلصصة ، واربته قليلاً طلبًا لهواء جديد ، فلم يقابلني سوى رائحة المطهر الذي سكبته العاملة على الأرضية ، استعدادًا لصباح جديد من الحوادث في شوارع المدينة ، التفت ورائي لأراهم يغطون في نوم يصعب وصفه ، فالحجرة التي منحت للأطباء المناوبين بالكاد تتسع لأربعة أسرة حديدية باردة ، أما الأغطية فقبل مدة ليست بالقليلة لم يكن هناك شيء متوافر منها ليقي المرء لسعة البرد في فجر الشتاء القارس ، فكان أحدنا يستعين بمعطفه أو يلتحف بما يجده أمامه من بقايا المعاطف الطبية ، إلى أن تم توفير أربع بطاطين إسبانية جعلت للنوم لذة مختلفة .

خرجت إلى الممر فاركًا عينيّ ، طاردًا ما تبقى من غبش التعب ، ممررًا أصابعي بين خصلات شعري ، محاولاً أن يبدو أقل فوضى . . اتجهت للحمام ، المياه التي تزحف منه إلى الممر تجبرك على السير بحذر

لئلا تبتل أو تنزلق ، أحد أحواض الغسيل فقد اتصاله بأنبوب التصريف فانساب الماء بحرية على الأرض الرمادية ، التي كانت يومًا ما بيضاء . في آخر الحمام ثلاثة أبواب تحوي المراحيض ، اتجهت إلى آخرها ، كان علي أن أدخل أصابعي بين حافة الباب والحائط كي أفتحه ، لأنه فقد يد رتاجه ، ولكي أحكم غلقه ورائي كان الأوائل قد أمدوه بخيط بلاستيكي لسحبه ولتدعو الله أن لا يفتح أحد الباب وأنت بالداخل . . انساب السائل داكنًا وانتهى الأمر بالاستعانة ببعض الماء من الحوض نفسه الذي ترك تحته دلوًا تعلوه الشوائب السوداء لالتقاط الماء المتساقط ، خرجت ، ورائي خطواتي تطبع على البلاط .

دخلت حجرة استراحة الأطباء لأرى الزملاء الأحدث تخرجًا ومنهم الأقدم ، يستعينون بالكراسي الصالونية لمد أجسادهم والنوم ، منهم من وضع كرسيين متقابلين ونام في وضع جنيني ، ومنهم من كان نصفه على الكرسي والباقي يستند على الطاولة ، التي غصت بالأكواب البلاستيكية الممتلئة ببقايا القهوة والشاي وأعقاب السجائر ، والتي تفحم جزء منها بصورة تجعلك تتساءل ما الذي جنته لكي تصاب بالاحتراق ، أو متى وأين وكيف احترقت . . بعد أن تكون قد اشتركت في معركة مع الباب لمحاولة إغلاقه دون جدوى تلتفت يمينًا إلى التلفاز ، والذي لم يتوقف عن العمل أربعًا وعشرين ساعة في اليوم ، سبعة أيام بالأسبوع ، حتى إن صورته بهتت وبات من الصعب تمييز ملامح الأشياء على شاشته . أمامك تقابلك النوافذ الطويلة ، اتجهت نحوها لأفتحها واستنشق عبق نهار جديد ، فلم يقابلني سوى صوت عربة الإسعاف ورائحة دخان العوادم ، والقضبان الحديدية الصدئة .

***

- وماذا حدث بعد ذلك؟

تساءلت وأنا أتناول كوب الشاي من على الطاولة المعاقة . أجاب (محمد) بتجهم :

- وما الذي سيحدث من وجهة نظرك . . قلت له يا عمي الحاج هذا لا يجوز ، يجب أن تخرج من حجرة الكشف . . ألا ترى أنه لا يوجد مكان لكي نعمل على إسعاف المصابين . . تصور ماذا قال لي؟!

- وماذا قال؟ ازدردت بعضًا من السائل العسلي في فمي ، لأجده بمرارة السكر المحترق ، تبًا ، هذا الشاي لا يصلح للاستعمال الآدمي . .

- أتدري ماذا قال؟! قال يا ولدي ترفق بعمك الحاج ، وبعدين مهنتكم مهنة إنسانية . . وما إن قال هذه العبارة حتى قفزت ملايين العفاريت في وجهي ، تركت حجرة الكشف وأنا أبربر بكلام لا أريد أن أعيده .

- بل قله أرجوك . .

- قلت له يا حاج . . أتدري أنني أعمل في هذا المكان منذ سنتين من دون تعيين ، وأن مكافأة المناوبات في قسم الإسعاف لا تنزل إلا إذا دحّى الديك ، ثم إن مهنة الطب ليست المهنة الإنسانية الوحيدة ، فإن مهنة حفار القبور هي من أهم المهن الإنسانية . .!!!

- حفار قبور . . رائع ، وماذا بعد . .

- وماذا بعد هذا . . لا شيء ها أنا أجلس منذ نصف ساعة أتميز غيظًا .

- وما الحل من وجهة نظرك ؟

- والله لم أعد أدري . .!

في تلك اللحظة فتح الباب بصوته الخشن ليدلف الممرض إلى

المجرة ، حاملاً ورقة كشف بيضاء ليمدها لي . . قرأت الخط الإنجليزي المكتوب بسرعة ، لأتبين أنه خطي . .

– ماذا يريد هذا المريض ، هذه ورقة محضر مشاجرة ، وقد كشفت عليه ولا يوجد في جسده أدنى خدش أو حتى رضوض لتجعل عائلته تقيم مأتمًا على رجولته التي ضاعت في الشجار . .

رد الممرض :

– دكتور (علي) إنه يريد راحة طبية . .

– قل له إن حالته الصحية لا تتطلب راحة طبية حتى لمدة ثانية واحدة . .

– ولكنه قال إنه لكي يفتح محضرًا بالمشاجرة ، طلبت منه الشرطة أن يوقع الطبيب المعالج أن المريض يحتاج لراحة طبية لمدة . . .

– اذهب وقل له إنني لست محاميًا أو قاضيًا هنا . . أنا طبيب أقيّم حالته الصحية فقط ، وبناءً على ذلك أمنحه راحة طبية لا بناءً على حالته الاجتماعية أو خلافاته الصبيانية . .

– حسنًا . .

خرج الممرض موصدًا الباب ، ليستلمني (محمد) :

– ألم أقل لك . . ما إن يروك هنا حتى يحاولوا أن يستغلوك بأية طريقة . . يا راجل اللي يجي يهنتش فيك .

– تعودنا على ذلك يا صاحبي . .

فتح الباب مرة أخرى . . متوقعًا أن يكون صاحب الورقة نفسه قد عاد ليناقش الموضوع بطريقته الخاصة . . ليظهر صديقنا (عبد السلام) ببذلته الأنيقة ، ماسكًا في يد هاتفه النقال وفي الأخرى سلسلة المفاتيح . . وقفنا لمصافحته فقد مرّ وقت لم نره فيه . .

- كيف الحال يا عبد السلام .
- في نعمة والحمد لله . . وأنت يا علي كيف هي الأحوال؟
- لا بأس . . لا بأس . .
التفت إلى محمد وساءله . .
- وأنت يا محمد كيف هي الأمور معك . .
- زي الزفت والحمد لله . .!
- ممتاز . . اليوم تبدو أكثر تفاؤلاً ، هذا تطور ملحوظ . . رد محمد :
- وكيف حال سيارتك الداوو نوبيرا؟
ضحك عبد السلام وعدل من جلسته على الكرسي ، مبدلاً من وضع رجليه ، إحداهما على الأخرى ، ملوحًا بسلسلة المفاتيح التي تحمل علامة لماركة السيارة المميزة . .
- أما نوبيرا يا رجل ، من أسبوع طلعت الغولف التي حجزتها من النقابة . .
أردفت قائلاً :
- إذن طلعت الغولف أخيرًا .
- نعم والحمد لله . .
- وكيف هي أحوال العمل . . أعني الصيدلية . .
- ممتازة ، الآن أستعد لفتح صيدلية ثانية مع شريك كبير . . أما عن المستشفى فأنا أذهب بين الحين والآخر ، أنت تدري فالصيدلية تأخذ كل وقتي . . البضاعة والتسعيرة وغيره . . والآن قاعد نجري
- تجري على ماذا؟
- نجري على البعثة ، قريبًا سينزل اسمي في القائمة القادمة . .
- وإلى أين . . بريطانيا؟

- لا كندا . . بالطبع . . وأهو الواحد يتحرك من مكان إلى مكان ويا دوبك يلحق . . وأنتم ماذا فعلتم في العمل ، في الدراسة العليا ، في السفر . .

- لا شيء يا عبد السلام ، ننتظر الذي لا يأتي ولا يأتي ، أنت كما تعلم فالعديد من زملائنا وأصدقائنا قد سافروا للخارج ، ومنهم من خرج بالحد الأدنى من المال ومنهم من جرى على رأيك أنت على البعثة .

- سمعت أن عددًا منهم يعمل هناك حتى يكملوا امتحانات المعادلة .

- نعم بعضهم في توزيع الجرائد صباحًا ، ومنهم من وجدوا محلات الأكل السريع ليعملوا إما في تنظيف الصحون والأرضيات أو في تحضير الأكل . . ومنهم . .

قام محمد من مكانه في تلك اللحظة ، بعد أن ظل طيلة هذه المدة صامتًا ، وتوجه نحو الباب .

- إلى أين يا محمد . .؟

- اتركني في حالي ، لقد انتفخ رأسي من كثرة هذا الحديث ، أريد أن أذهب علني أغفو بعض الوقت قبل المساء . .

رد عبد السلام :

- أرجو المعذرة دكتور محمد . . أرجو أن لا نكون قد أزعجنا سوداوية سيادتك . .

- ظريف جدًا يا عبد السلام ، كعادتك تتفنن دائمًا في تعذيبنا . .

فتح محمد الباب وتابعت وعبد السلام الحديث ، ولكن قبل أن

يغلق الباب عاد محمد مسرعًا ، بينما كانت جلبة في الممر وأصوات عربة نقل المرضى بعجلاتها المعاقة تقرقع في المكان . . والأقدام تتلاحق .

– علي أسرع هناك حالة إنعاش . . هيا بنا . .

أسرعت للخروج واللحاق بالحالة . . بينما كان عبد السلام يخرج من الحجرة ورائي ملوحًا بيده . . صائحًا :

– ربي يكون في عونكم . . نشوفكم قريبًا . . مع السلامة . .

لم أجد وقتًا للرد على تحيته فلقد أغلقت ورائي حجرة الإنعاش ، لأرى محمد يسرع لوضع إبرة التعذية في أحد أوردة المصاب ، الذي بدا شابًا تنز الدماء من وجهه وصدره ، أصبحت الحجرة تعمل لإنقاذ من جاء متأخرًا . . ومحمد يصيح . .

– ضع أنبوب التنفس ، لا يوجد نبض ، أعدو حقنة الأدرينالين . .

– دكتور لا يوجد أدرينالين . . ردت الممرضة بارتباك .

– كيف هذا . . اذهبي وأحضري من حجرة العناية . .

رددت :

– سأذهب أنا بسرعة . .

خرجت من حجرة الإنعاش يتبعني خط أخضر داكن مستقيم . . لا حياة فيه . . ورغبة عنيفة تنمو بداخلي ، أن أصفع كل من أمامي . .

ثامنهـــم

..بقية ما حدث

يعدو مسرعًا . . الأشباح تلاحقه ، الجنون ينخر عقله ، مرت ثلاثة أيام لم يقترب فيها من الماء . . وتلك الأطياف لا تفارقه ، يستلقي على الرمال الملتهبة تحرق جلده ، يتساقط الشعر عن بطنه وصدره . . يلهث ، الضوء المبهر يزعجه ، راح يعدو حتى بلغ ملتقى النهرين ، هناك وصلته رائحة نفاذة ، حركت غريزته للأكل ، مضى حتى بلغ صخرة على ضفاف الشاطئ ، آثار أقدام ليست بالقديمة لشخصين كانا هنا قبل بضع دقائق . . رأى قفة على حافة الصخرة تهتز ، اقترب منها ، شمها ، ألقى بالغطاء من على القفة ، كانت السمكة تتقافز بعد أن دبت فيها الحياة من جديد ، وفجأة طارت في الهواء ، نظر إليها وهي تعلو فوقه وتتجه صوب الأمواج ، ثم اختفت . . . راح يلوك ما تبقى من اللحم في فمه ، باصقًا الأشواك حتى لا يختنق بها . . تناهت إلى سمعه أصوات قادمة . . جرى مسرعًا وراء الصخرة مختفيًا عن الأنظار ، رأى رجلين قادمين أحدهما كهلٌ يتوكأ على عصًا غليظة بينما الآخر فتىً يرتدي ملابس متواضعة . . وقفا عند قمة الصخرة ، شاهدهما يتناقشان ولكنه لم يتبين ما يقولانه سوى بضع كلمات لا معنى لها . رآهما يعودان من حيث قدما . . تبعهما دون أن يلفت إليه الأنظار ، مازالت دماء السمكة تلمع على شفتيه الورديتين ، ظهر من وراء الأجمة رجلٌ بهي يتهادى في مشيته ، توقف الرجلان الأولان

١ - ادلا الحديث مع الرجل البهي هذا . لم يمر الكثير من الوقت حتى مضى ثلاثتهم نحو الشرق .

أسرع يلاحق مسير الرجال وهم يتجهون إلى إحدى المدن القريبة من النهر ، لايزال طعم العظام التي التهمها قبل بضعة أيام يعود ليسبب له الغثيان . . «متى أتخلص من هذا الطعم القاتل . .؟!! سأجن إن لم أجد حلاً . . .» ، ما إن وصل بالقرب من المرفأ حتى رأى مجموعة من الأطفال يلعبون بالكرات الزجاجية بينما أهلهم يستعدون لصعود أحد المراكب التي تتجهز للرحيل . . شاهد الرجال الذين يلاحقهم يصعدون المركب فصعد في إثرهم واختار ركنًا قصيًا ليختبئ فيه ، انطلقت السفينة تمخر الأمواج ، وبينما هو كذلك رأى الرجل البهي يتسلل إلى باطن المركب ، لحق به ، وراقبه وهو يحدث خرقًا في جسمها ليتدفق الماء ، وفجأةً تقلب الجو وهبت العاصفة وبدأت نذر غرق المركب وشيكة ، وقف الجميع على ظهره ، يبحثون الأمر ، صاح القبطان : «أيها الناس ، قد سلطت علينا اللعنة ، فما نملك سوى أن نلقي بقربان إلى النهر حتى نصل سالمين إلى الشاطئ» وقف الرجال الثلاثة الذين يراقبهم مع الجميع ولم ينبسوا ببنت شفة ، واصل القبطان كلامه : «سنختار رجل النحس الذي بيننا ونلقي بشؤمه إلى البحر» . ارتعدت الفرائص وهي تستعد لاستخراج الأوراق من الكيس ، كل منهم يختار ورقة مطوية ويسير إلى مصيره . بعد أن أخذ الجميع الأوراق كافة أعطيت الإشارة لفتحها ، واحدة فقط كانت تحوي علامة تدل على أن الاختيار قد وقع على هذا الشخص ، التفت الجميع إلى رجل سقط من هول مصيبته ، رأوا الورقة تسقط من يده وبها العلامة ، اقترب الجميع منه وألقوا به في غياهب العاصفة

المتلاطمة ، وغير بعيد شاهدوا حوتًا ضخمًا يبتلعه . سمع أحد الركاب يتمتم : «لا بد أنه قد ارتكب إثمًا عظيمًا ليكون حظه بها السوء» .

وصلت السفينة إلى أحد المرافئ ، فنزل منها بعض العائلات والرجال الثلاثة كذلك . . تمكن من اللحاق بهم قبل أن يرى الرجل البهي ، وهو يخطف غلامًا ويجري مسرعًا به إلى إحدى الأزقة . بدا أن الغلام غير منزعج مما يحدث ، وما هي غير لحظات حتى التفّت يدا الرجل البهي حول عنقه الدقيقة ليختنق ويفارق الحياة . . هنا لم يستطع أن يمنع عواءه فأطلقه ليصدح بين الجدران ، أسرع الرجال الثلاثة بالهرب إلى القرية المجاورة ، بينما كان المارة يقتربون من جثة الطفل المغدور . . وأعلن في القرى كافة أن هناك قاتلاً هاربًا ؛ لذا فليأخذ الناس حذرهم ولا يستقبلوا الغرباء . .

كان الثلاثة يبحثون عن مكان لقضاء بقية اليوم ، ولكن الأبواب كانت مغلقة في وجوههم ، وأبى الجميع أن يستقبلهم ، سار وراءهم وهم يهمون بالخروج من القرية حتى وصلوا موضعًا به بعض الخرائب . وقف الرجل البهي وبدأ يأمر الآخرين بترميم أحد الجدران المتهالكة ومع آخر النهار أتموا العمل . . حدث نفسه : «لمَ قاموا بذلك ، لا بد من أن هناك سرًا وراء هذا الجدار . . عليّ الانتظار حتى يذهبوا لكي أستجلي الأمر» . رآهم يرحلون تاركين الجدار . . اقترب من المكان ، راح يمرر أنفه على الأرض حول الجدار عله يميز رائحة ما . . لا شيء . . بدأ ينبش حافة الصخور في منتصف الحائط ، يحفر بكل قوة ويلقي بالتراب والحصى وراءه برجليه . . صور المشانق والمحارق تلاحقه . . ظلام الكهف لم يفارقه بعد . . خدشت مخالبه صندوقًا متوسطًا ، أمسك أطرافه بأسنانه وجره خارج الحفرة . . أزال التراب عنه بأنفه ثم

كشف الغطاء ليرى الذهب والجواهر تلمع بخفوت في هذا الغسق . . أحس برغبة في العواء ولكن الرجال الثلاثة لم يبتعدوا كثيرًا . . كتم صوته وفكر بإخفاء الكنز في موضع آخر لا يعرفه أحد ، وجد بيتًا قديمًا بالقرب من المكان ، راح يحفر في أحد الأركان حتى وصل العمق المطلوب ، هناك ألقى بالصندوق وطمره وأعاد التراب كما كان . . ثم عاد إلى الجدار وأغلق الحفرة القديمة وأعاد المكان لما كان عليه . .

رأى الشمس في الأفق ، آخذة بالغروب بينما ما تبقى من شبح الرجال الثلاثة قد تفرق إلى جزأين ، اثنين يتجهان غربًا وواحد يتجه شرقًا . . شعر بالمرارة من جديد وراح قلبه ينتفض ، وحنين نحو ظلام الكهف يجبره على التراجع والعودة من حيث أتى . . أسرع الخطى شمالاً . . مع آخر الليل اقترب من التلة ، أمام المدخل وقف ليتطلع إلى الصحراء . . شعر برغبة في الموت . . ثقل رأسه ، بسط ذراعيه على الأرض وبدأ جفناه بالتثاقل . . كان آخر ما لمحه ، رجلاً بهيّاً فارع الطول يخرج من الأجمة ، وفي يده صخرة كبيرة تستعد لأن تسقط على رأسه . . .

إن شاء الله تحج..!

عند اليوم الأخير سمع العم (أبو بكر) بعض الطلبة يضحكون ، ويردد أحـدهم : «إن شـاء الله تحج . .!» . . تمنى أن يقـولوا له هذه العبارة ، فمنذ زمن وهو يتمنى أن يؤدي مناسك الحج . . فها هو وصل إلى سن التقاعد ولم تسنح له هذه الفرصة بعد .

العم (أبو بكر) أو (عمي بو بكر) كما يعرف بين طلبة كلية الطب البشري ، قضى أكثر من ربع قرن يعمل بمشرحة الكلية . . منذ أن افتتحت كلية الطب بطرابلس أوائل السبعينات ، دخلها رجلاً يمتلئ بالقوة ، فاحم الشعر ، بعينيه الخضراوين الثاقبتين ، وها هو الآن ممصوصٌ ، ذابل العينين ، بالرغم مما فيهما من توقد يدل على ذكاء و«زقاطة»(*) ، يحمي صلعته بطاقية بيضاء لا تفارقه صيفًا أو شتاءً . لم تضع السنوات التي قضاها عمي بوبكر في عمله بالمشرحة ، فلقد حفظ جميع مصطلحات التشريح الإنجليزية عن ظهر قلب ، والتي يعاني الطلبة في استذكارها الأمرّين ، يأتي كل صباح بدراجته «البيانكي»(**) ، مجتازًا أشجار الزيتون القديمة حتى مدخل كلية الطب ، حيث يركنها بمحطة السيارات ، بعد أن يتأكد من دوران

(*) زقاطة : الفطنة

(*) بيانكي : ماركة دراجات إيطالية

السلسلة المعدنية حول عجلتها ، وإحكام القفل ، وغير بعيد يركن أحد الطلبة سيارته «الطرحة»(*) .

***

بالرغم من تجاوزه الستين ، إلا أن من يراه يحسبه في الأربعين ، بالرغم من تلك الصلعة والشعيرات البيضاء ، لقد جعلته مهنته في حمل الجثث والأطراف البشرية أقوى من صوان . العم أبو بكر معروف بين الطلبة على مرّ السنوات التي تتالت على الكلية ، فهو يحب مساعدتهم ، فكثيرًا ما تجده يقف معهم يتجاذب أطراف الحديث ، يحدثهم عن الأيام الأولى للكلية والمشرحة ، وكيف كانت هناك وفرة في عدد الجثث إلى جانب العدد القليل للطلاب في ذلك الوقت ، ويعدد أسماء الطلبة السابقين الذين تخرجوا منها ، والذين أصبح منهم أطباء مشهورون في ليبيا والعالم . لقد كان عمي بوبكر مقربًا من الطلاب ، ولذا عندما علموا أنه ينوي التقاعد عند وصوله إلى السن القانونية ، حاولوا أن يساعدوه بشتى الطرق للحصول على أمنية حياته بالحج . . لكن محاولاتهم باءت بالفشل . . ففي ذلك العام أصابت «القُرعة» زوجته للحج وأخطأته هو ، وحاول بشتى الطرق ، بتحريك الأكتاف وربما الأرداف لإقناع لجنة الحج ليكون مرافقًا لزوجته ، التي لا تستطيع الذهاب لوحدها دون محرم . لكنهم رفضوا التماساته وراح يجاهر بفجيعته أمام الكل : «يالله دنيا عجب ، العزوز تحصل على القرعة وشيبانيها ما يحصلهاش ، باهي كيف تبي تمشي بروحها ، يالله دنيا . .!!» ، لكن عمي بوبكر الذي خبر الحياة لم يتوقف عند هذه

(*) الطرحة : كلمة عامية شبابية تعني أحدث موديل بالسوق .

الحادثة فما خفي كان أعظم . . «واللي يشوف مصيبة غيره تهون عليه مصيبته» ، مرددًا جميع الأمثال التي تحث على الأمل ومواصلة الحياة ، ومضى عم بوبكر إلى المشرحة تأكله سوائل الفورمالين الحافظة ، وتنسيه روائح تفسخ الجثث في الصيف القائظ معنى الجوع ، وظل بالرغم من ذلك يردد بسخرية المثل الجديد القديم : «كان صبرت تموت حاجّ» ، ويردف : «كان حصلت القرعة» .

***

في العام التالي ، حصل زميله «عمي محمد» على القرعة هو وزوجته للحج ، وبالرغم من أن صحة العم محمد لم تكن أفضل من عم بوبكر ، فقد تعرض قبل ستة أشهر لحادث أدى إلى كسر في كاحله الأيمن ، ما جعله يضعها في الجبس لمدة ثلاثة أشهر ولا يزال يستعمل العكاز في حركته ، إلا أن فرصته في الحصول على القرعة ساهمت بالتعجيل في شفائه ، وبذا لم يبق من زملاء العم أبو بكر من لم يحظَ بلقب الحاج عداه هو ، وإن كان أحيانًا يطلق عليه لقب الحاج ، بين حين وآخر إلا أنه ينظر إلى من يخاطبه بهذا اللقب شزرًا ، ويمنحه ابتسامة صفراء ويقول له : «إن شاء الله كلنا نحجوا . .» ويردف مخاطبه : «إن شاء الله أجمعين يا حاج» ، ولكن العمر يمضي والصحة تنقص ، والأيام الأخيرة من سنوات العمل تقترب . .

***

بداية العام الجديد تعني الكثير للعم بوبكر ، فبغض النظر عن كونها بداية جديدة وسنة أخرى من سنين حياته تضاف للسنوات الماحلات ، فالسنة الجديدة تعني جثثًا جديدة بالرغم من قلتها في الفترة الأخيرة ، وتعني أيضًا أجسادًا حية جديدة تتدافع لتأخذ مكانها

حول مناضد التشريح لتتعلم ، والنظرة الأولى التي يلقيها شباب في عنفوان الحياة على الموت المجسد أجزاءً مبعثرة أو جثة جاهزة للتبعثر ، فكثيرًا ما كان يساعد في إنعاش إحدى الطالبات التي فقدت وعيها ؛ أو يحاول تهدئة أخريات رحن يرتجفن من اللقاء الأول ، بكوب من الماء أو إخراجهن لتنشق الهواء ، وليس الطلبة الذكور بأحسن حالاً ، فرغم القوة التي قد يدعيها بعضهم إلا أن كثيرًا منهم يخرج من هذا اللقاء شاحبًا وأصفر مثل «الكركم» ، وفي جميع الأحوال فإن عمي بو بكر ظل هو المساند للطلبة في رحلتهم الأولى إلى عالم لم يروه ، وإنما سمعوا بتندراته من الطلاب الذين يسبقونهم في الكلية . . البداية تعني عند عمي بو بكر التعرف على طلبة جدد أو أن يتعرف عليه هؤلاء الطلبة ، وربما أول شيء يتعرف عليه الطالب هو عمي بو بكر ، الذي رغم السنوات التي تمر لا يعرف عنه إلا اسمه الأول فقط ، فالعم أبو بكر هو عمي بو بكر ولا شيء غير ذلك . . عمي بو بكر مين وشكون وعلاش ، لا أحد يعلم أو بالأحرى لم يحاول أحد أن يسأل تلك الأسئلة . . ولكن السؤال الأول الذي يتبادر إلى الذهن والذي دائمًا ما سئل عنه هو :

«قداش ليك في المشرحة يا عم بو بكر؟» ، فيجيب بمرح وهو يدق على جدران المكان . .

«أنا لما جأت الشركة ووقعت عقد البني . . كتبوني فيه وبنوني مع المشرحة . .!!»

***

في ذلك اليوم ، وقبل أن يخرج من المشرحة ، ألقى العم بوبكر نظرة أخيرة على أحواض الفورمالين ، والتي تحتوي على البقايا

البشرية . . متذكرًا القصص التي جمعته بهذه المشرحة ، مع العديد من الوجوه الحية والميتة ، علق معطفه الأبيض ، وعدل من طاقيته ومضى خارجًا . .

«خير يا عم بوبكر . . شنو الجو(*)؟»

«الحمد لله . . كيف حالكم أنتم ، كيف درتوا في الامتحانات؟»

«والله يا عم بوبكر اليوم كملنا الامتحان العملي الأخير متاع التشريح»

«وشنو مازالو ديرو هني . . هيا بالك روحو»

«ولكن حني خايفين من النتيجة»

«ما تخافوش ، تشوفوا في مبنى السنة الثالثة اللي غادي ، بروله ومعاش تجو للمشرحة مرة تانية ، إن شاء الله ح تنجحوا»

«وأنت شنو مداير يا عم بوبكر؟»

«والله بخير . . قريب نطلع عل تقاعد»

«قصدك خلاص معا ش ح نشوفوك . . والله لما نستحشوك»

«بارك الله فيكم . . لكن نبي نسألكم حاجة واحدة»

«شنو يا عم بوبكر؟»

«بكري سمعتكم تضحكوا مع بعض ، وبعدين قال واحد منكم للآخر : «إن شاء الله تحج» ، شنو معناها هذه الكلمة؟»

كانوا قد وصلوا عند محطة السيارات وراح العديد من الطلبة يسرع ليستقل مركبته للاحتفال بنهاية الامتحانات ، وهم يصيحون فرحًا ولم يعر أيٌّ منهم انتباهًا للعم بو بكر .

(*) شنو الجو : تعبير عامي حديث بمعنى كيف هي الأحوال معك .

«معليش يا عم بوبكر حني مستعجلين ، نشوفوك»

« لكن . . لكن شنو معناها؟»

سمع أحدهم وهو يصيح والسيارات تثير الغبار :

«هذي صقع(*) عليك يا عم بوبكر»

وغادر الطلبة تاركين العم بو بكر يستقل دراجته الإيطالية القديمة ، بينما كانت الشمس تلقي بحرّها على رأسه . . رغم أنه شعر بالبرودة تعتريه في كل أطرافه .

(*) صقع : عامية بمعنى البرد ، والتعبير العامي الحديث صقع عليك تقال للشخص عندما يكون الشيء أو الموضوع يصعب عليه فهمه أو الحصول عليه .

مشهدية عند حافة الجحيم

إلى عبد الدائم اكواص . . .

(١)

بداية الطريق لا تنتهي . . هنا عند ما قبل الحافة بكابوس أجدني أسرع إلى الجحيم ، وهناك ما هو مزيد مما لا يقال . . في البعد تلوح شمس باردة تبحث عن دفء ظل يعيد جحيمها الملتهب . في اليوم الأول من القيامة التي تسبق اليقين ضربت موعدًا معه . . ملاك بلا أجنحة يسير أشعث ينحني فوق الرمال يذروها فوق رأسه . . يصيح أن الصاخة قادمة . . في اليوم الأول قبل القيامة الميتة التقيته . بعد الموعد غادرني وقد حمل معه لعنة المكان . . قال لي أن لا أفيق من الكابوس ، الحلم لا يجدي فتمسك بكابوسك . . خلاصك بعد أربعين . . لم يحلق في السماء كما الملائكة . . سار مبتعدًا مطأطئ الرأس يعلوه سواد الفرح المستحيل . سئمت لعبة الانتظار فقررت أن أبدأ الرحلة حتى الحافة ؛ فالقيامة لن تأتي في هذا الموضع من الأرض الجدبة . . تذكرت قبلها حياة سابقة عاشتني وتركت ذاكرتها بأطراف أصابعي . . قريبًا . . بعيدًا . . مستويًا على بقايا البحيرة الجافة . . بعد الألف بخطوة وقفت أفتش آثاري . . بلا أثر تابعت ما يجب أن أمشيه . . بعد البداية وقبل القيامة بحافة . .

(٢)

لم تتضح الصورة في البداية . . مشاهد مبعثرة تستميت لتقوم على أنقاض عوراتها المستباحة . . أمامي ما يشبه الجبل . . مرتفع ثم منحدر . . ما كان يمكن أن يطلق عليه بحر استحال إلى بخار خانق من الغازات السامة . . هل هذا الجحيم؟! . . لا أدري لمَ أخبرونا أنه مكان قبيح . . ما إن بدأت رحلة عودتي إلى قارتي الصغيرة في اتساعها اللامنتهي حتى وجدتني بالقرب من البحيرة . . هنا قفزنا في المياه الضحلة نمنح لطفولتنا المراقة دماؤها بعضًا من الحياة المنهوبة منها . . المكان لم يعد هو المكان ، أسوار عالية من الأسلاك المتشابكة تحيط به . . عند البوابة تقف مجموعة من الكائنات تحمل بنادقها ترقبًا لفعل الخيانة . وراء الأسوار ألمح صورتي المنعكسة على صفحة البحيرة ؛ صورتي الآخذة في التضاؤل أمام الركام الذي يقبع في قاع الأخدود . . فعل الخيانة يتضخم ، يسرع الوحش في الهرب خوفًا من وحشيته . أقف أنتظر جحيمي أن يسود ويعلو ، أتركه هناك واقفًا بالقرب من حماقته وأعود إلى ما تبقى من أشجار صنوبر أمسح عنها الحزن والحنين . هل هذا هو الجحيم الذي أخافونا منه . .؟! كم هو رائق وهادئ . . تذكرت ملاكي المذموم . . المطرود من صحبة الإله . . كاد يقع في المعصية لكنه أبى أن يسلم بالأمر . . اتخذ مكانه بين جحيمي والبحيرة وراح يعد القطرات المتساقطة من سماء لا تعرف الرحمة . . لوحت بيدي عله يراني . . كان وجهه بعيدًا عني . . موليًا إياه شطر الأفق المغبر من قطع الصخور بالمحجر . . أمسكت الأسلاك المتشابكة ، تبعثرت أصابعي . . هززت الشباك . . لكن خيانتي وصلت

حدها الذي يجب أن تنتهي عنده . . خرجت صرختي مكتومةً . . حدث كل هذا بعد أن سألني . . «هل أنت بخير . .؟!!» ، أجبته : «إنها تمطر وقد لا نرى الشمس الليلة» . . . .

(٣)

ما إن فرغت من نفسي جاءني يطلب المزيد من النعيم . بحثت بين أرجاء الصحراء المترامية . . حجارة خشنة على مدى الأفق الذي يبتلع المياه الساقطة من حميم السماء . . هنا لا حياة إلا للملح . . يتكلس على امتداد اللاشيء . . بقع من مياه هنا وهناك لا جدوى من رشفها فهي ليست أكثر ملوحة من مياهنا . . صورتي تنعكس على الصفحة السوداء للبحيرة . . أعمق . . أعمق يغوص بجسده في الساحقة . . تركته بحثًا عن مياه أشد ملوحةً . . عند الخمسين كيلومترًا من الواحة استوقفني وأجبرني على النزول من دابتي المعدنية . . منحني نظرة الفرح وأحالني على نزقه الغوغائي ، أدخل يده في جرابي واستخرج أحشائي . . بعثر سوأتي على الأرض أمام الجميع . . رمقني بنظرته التائهة مجددًا حاول نزع شعري . . ظنه مستعارًا . . استسلمت له . . أدخل يده في فمي ، أحسست بها تخرج من مؤخرتي . . التفتيش دقيق . . لا شيء . . تشرق شمس لا تحمل الضوء . . ظلال من التفاؤل الحذر تمنحني ركعتين للإله . . طفقت علي بحجارة الجحيم ، ألملم سوأتي ، أعود لأستقل دابتي . . أتجه شمالاً حيث البحر يشق طريقًا للأمل . .

(٤)

يندفع اخضرار مشع من أشجار زيتون بعمر الكيان ، أقف على عتبات المدخل الأمامي ، تقابلني الأعمدة المرمرية ، تأتيني نفحات لحظات النهاية قبل البداية تلك . . أرتدي البياض وأواصل السير بوثوق على البياض . . أسمع صوت الجد يأمرني بمواصلة التحرك . . ألتقط ابتسامة المعافى وألصقها على وجهي لأعود نضرًا . . أخرج ولم تزل الشمس في مسيرها نحو الشروق . . عبق صنوبر بعشرات السنين . . صورة أخرى للنعيم . قهقهة الجد وهو يغمس لي قطعة عجين الشعير في بياض اللبن . . وأنا أحملق بطفولتي في شعيرات لحيته البيضاء . . آكلها وأمضي خارج أسوار الزاوية ، أبتلع ذلك الزمان الجديد . .

(٥)

جلست بالقرب منه . . عند الحافة . . وجدته يتأمل السكون الذي امتد بعد أن دوى الانفجار . . أسقط . . أحمله على الكلام . . أنظر إليه لا أبالي بما حدث . . «هل قررت السفر أخيرًا؟» . . أحسبه لم يشعر بوجودي قربه . . أحسست به يرتعد ربما من حجم ما سيأتي . . زفر ثم تململ في مكانه : «نعم يبدو أن لا مفر» . قلت له : «تتساقطون مثل الذباب أمامي» ، محيلاً ذاكراته إلى الأصدقاء يرحلون من أمامي دون وداع ، قررت حينها أن أقطف أوراقهم وألقي بها في الهاوية وراء الحافة . . نظر إليّ ، بدا أنني لا أعرفه ، ورقة أخرى تسقط هناك . . «يبدو أننا غير جديرين بهذه الأرض . . لذا نخونها» . . هززت رأسي ، أعدت على مخيلتي ما كتبته في زمن ما وأهديته إياه . . «كنا هناك

أطفالاً علقوا أحلامهم في ذيل خطيفة ، وتاهوا بين الأشكال السداسية والألوان البرتقالية والبنية والخضراء . .» . . . «بمَ تفكر ؟» . أجبته بلا تردد : «أفكر بالرحيل .» ، قرأت الاستغراب على وجهه : «هل سترحل أنت كذلك . .» ، كانت الحافة تزاد حدةً ونحن بالكاد نحمل أنفسنا على أن لا نقع في الهاوية القريبة . . أجبرت ابتسامة موؤودة على الالتصاق . . «لا بد من الرحيل ، زمرة نحو الشمال ، وفرد نحو الشِمَال ، زمرة نحو الشروق . . نحو الوميض . . البصيص . . البريق . . الشهيق . . نحو النحو ، وفردٌ نحو الداخل . . نحو الباطن . . نحو المغزى ، فردٌ اختار أن يكون رحيله كبيرًا . . كبير» . . تذكرت أحدهم يوم سقطت ورقته بالقرب من البحر عند الميناء ، وأنا أحاول أن أعيد بعضًا من أحلامه القديمة . . «أمازلت في ضلالك القديم . .؟!» ، هكذا صاح بي . . لم أكن أعلم أن الأوراق تتساقط بسهولة ما إن تهب الرياح الجليدية من الشمال . . قررت أن أكون ورقة أنا الآخر ، وأن أسقط في أناي الباطني .

حملت حقيبته اليتيمة حتى باب الطائرة . . كلانا يكره المطارات وصخبها . . قبل أن ننطق بوداع لا يليق بنا كانت الطائرة قد أقلعت . كان النصل ينزف دمًا ، انعكس وجهي القتيل على إحدى حوافه ، بينما كانت ابتسامة قاتلي تشع عند تلك الحافة الأخرى . . سمعت الصيحة الثانية . . اعتقدت أن الجميع سينهض من أجداثه ، يعودون من حيث أتوا يعلو وجوههم سواد الندم . . لكن لا شيء يحدث . . هذه خدعة أخرى تغتالني . . اتفق على العودة لوحدي . . بعد سؤاله المفاجئ : «ماذا عن حالة الجو عندكم» ، أجبته «أنا لست بخير . .» ، علمت حينها أنني قد سقطت . . . .

حلم وردي...

. . أستلقي على الكرسي واضعًا رأسي على المسند ، مرخيًا رجليّ على ظهر الكرسي الذي يشبه الكنبة . . تيار من الهواء البارد ينبعث من وراء الواجهة الزجاجية التي تفصلني عن صالة انتظار المغادرين . . أشد ياقة السترة حول رقبتي ، في هذا الجو الخريفي لا مفر من محاولة التظاهر بالدفء . . أنظر إلى عزيز الملتف حول نفسه ، أمعن البصر في نظارته ذات العدسات الغليظة والتي فقدت إحدى ذراعيها قبل أسبوعين . يوم ثالث يمر ونحن عالقون في مطار (شارل ديجول) بباريس ، غدًا صباحًا موعد اللحاق بالطائرة التي تأخرنا عنها قبل ثلاثة أيام . بعد أن تحصلنا على ختم الخروج ، لم يسمح لنا بالعودة إلى المدينة ، ما إن شاهد الضابط المسؤول جوازات سفرنا الخضراء اللون حتى لوح بيده وهو يرطن بالفرنسية : «نو . . نو» ، لنجد أنفسنا نقيم في صالة الانتظار في المطار ، استنفدنا وقتنا في الحديث والحديث ومراقبة المسافرين الذين ما إن يجلسوا لبضع دقائق حتى يغادروا لصعود طائرتهم ، ونحن نواصل عدّ الدقائق المملة . لم يتبق في الجيب من الخمسمائة فرنك التي سلمت من التبعثر سوى بضعة فرنكات قد لا تكفي لوجبة إفطار في مقهى المطار ، علبة التونة المتبقية تناولناها عشاءً أخيرًا هذه الليلة . منتصف الليل ولا أحد بصالة الانتظار سوى بعض أفراد الأمن ، الذين تعودوا على وجودنا

محاصرين في هذا المكان ، الرحلة الأخيرة القادمة من أسبانيا انفض ركابها ليذوبوا في ليل باريس الخريفي . .

***

وجدته مستلقيًا على الفراش ، لم يكن يوحي شكله بالراحة التي طلبها ببقائه في الحجرة ، على الرغم من أننا أنجزنا ما جئنا من أجله ونستعد للعودة ، لم يكن بمزاج للخروج هذه الليلة ، لذا قررت الذهاب بمفردي للقاء ماجد بسان جيرمان . حاولت العودة مبكرًا ، وجدته في الظلام يحدق في التلفاز المثبت بأعلى الجدار ، ماسكًا جهاز التحكم عن بعد ، ينتقل من قناة إلى أخرى . يبدو أنه تخلى عن الإمساك بنظارته المعطوبة وألقاها جانبًا ، أعرف أنه لا يستطيع التمييز من دونها ، على الطاولة الصغيرة بدت آثار قطع من الخبز وعلبة تونة ملقاة بسلة المهملات . بدت الحجرة الضيقة أشبه بزنزانة في فندق بنجمتين ، يبدو أن شياطين زمن بعيد قد عادت لتنهشه في هذه الأمسية . القمر يسكب نوره من خلال الستارة الموارية أمام النافذة الصغيرة ، نظر إلي وهو يحاول أن يميز ملامحي ، ربما كان يعتقد أنني أحد تلك الشياطين القديمة . ضغطت على زر الإضاءة ، أغلق جفنيه اتقاءً للنور ، ألقيت بحقيبتي جانبًا ، انتظرته حتى فتح عينيه مجددًا . انتظرته حتى يبدأ بالكلام ، وضع ابتسامة مبهمة وقال : «لم تتأخر ، هل قضيت وقتًا ممتعًا» ، أجبته : «حاولت ذلك . كان عليّ أن ألتقي ماجد لنقل حقيبته من فندقه الذي طلبوا منه مغادرته ، لنبحث له عن مكان جديد . .» ، سكتُّ لبرهة ، نظرت إلى التلفاز ، مشاهد من مباراة لكرة القدم ، تابعت بحذر : «وأنت . . . يبدو أنك قضيت وقتًا

ممتعًا . .!» ، كنت أعرف أنني أقترب من حقل الألغام لكنني أحاول أن أخرج بأقل الخسائر . . تململ في الفراش ، استعاد نظارته وثبتها فوق أنفه . «لا أدري . . هل كان ممتعًا؟ بل هل كان وقتًا؟ أم هل قضيته بالمرة؟ . الضجيج يملأ المكان .» . أجبته : «كان من الأفضل أن تخرج معنا . .» . تمتم وهو يضع رأسه على الوسادة ويتلفع بالأغطية : «ربما غدًا ، ربما غدًا» . سألته : «هل ستنام . .؟» . أشار بحركة من رأسه بالإثبات : «حسنًا هل أغلق التلفاز أم أتركه . .؟» ، أشار بحركة لا مبالية من يده ، تركته وذهبت لأبدل ملابسي .

سألته قبل أن أخلد إلى النوم : «على فكرة هل أكدت على حجز رحلة العودة إلى طرابلس بعد غد» . أجاب بصوت نائم : «نعم قد فعلت ، ستقلع الطائرة السابعة والنصف صباحًا ، علينا أن نترك الفندق باكرًا لنلحق بالموعد» . غمر الحجرة ضوء القمر عبر النافذة . «أرجو أن نلحق بها . .» ، أردفت وأنا أتحسس موضع الفراش بالظلام ، سمعت شخيره يرتفع ، دائمًا يسبقني في الاستغراق بالنوم ، خمنت أن شياطينه ستقضي ليلتها في الخارج تنتظر قدوم الفجر ، بينما كان لدي موعد إجباري مع شياطيني لهذه الليلة .

***

كانت قطرات المطر قد غسلت الشارع أمامنا ، أشجار الكستناء تحاول أن تتشبث بما تبقى لها من خضرة مع بداية خريف جديد ، خرجنا باكرًا للاستمتاع بهذا اليوم المتبقي من رحلتنا ، سان ميشيل لم يكن مزدحمًا . الأزقة الضيقة المبلطة بالحجارة منحتنا بعض الاقتراب من المدينة القديمة بطرابلس . على جوانب الزقاق محلات

لبيع المشاوي ، كباب ، كفتة ، شاورما على الطريقة التركية ، اليونانية ، القبرصية ، اللبنانية ، في طرف الشارع اخترنا الجلوس بأحد المقاهي ، طلبنا قدحين من الكابيتشينو والكاكاو وبعض قطع من الحلوى . أخرج ماجد علبة سجائر الدافيدوف الأنيقة ، وضع سيجارة بين شفتيه وأشعلها ، علقت : «هل حقًا قررت أن تبدأ بالتدخين . .؟» ، أجاب وهو ينفث النفس الأول : «أنا لا أدخن . . هذه مجرد تسلية لا أكثر» ، أجبته وأنا أبتسم بخبث . . «نعم تسلية ذات رائحة خانقة ، وخاصة أنك تجرب كل أسبوع نوعًا جديدًا من السجائر ، وبالأخص هذه العلامات التجارية الفاخرة . .» ، ابتسم بدوره لدعابتي : «أنت تعرفني . . أحب أن أكون غريب الأطوار» .

ارتشفت بعض الكاكاو . . أحسست بالدفء يغمرني ، أتسلى بعلبة الثقاب . . «إنك لا تحتاج لأن تخبرني بذلك . .» .

أشار لي في تلك اللحظة لأنظر إلى الجانب الآخر من الرصيف ، حيث كانت باريسية حسناء تتهادى من الطرف الآخر ، يعرف أنني لن أبالي كثيرًا بهذا المشهد ، لكنني رحت أستمتع معه بالمنظر . . بعد أن مرت ، قال : «لا تخبرني أنها لم تعجبك . .» ، قلت له : «جيدة ولكنني لست بمزاج لأستمتع بالمناظر المكتوب عليها ممنوع اللمس . .» ؛ أجاب : «أتدري ماذا يسمي عزيز حالتنا المزرية» ، قلت له : «ماذا . . أرجو أن لا تكون إحدى نظرياتك الجديدة!» ، قال : «كلا . . كلا إنه يسمي ما نحن عليه (الإخصاء الاجتماعي) . .» ، صحت باستنكار : «ماذا؟» ، تابع حديثه : «نعم ، لقد قام المجتمع بإخصائنا ، فنحن أصبحنا أشباه رجال» . . رحت أتخيل نفسي بلا خصيتين . . شعرت بالألم لمجرد الفكرة . نفضت الخيال عن رأسي ، وأجبته : «دعنا من هذركما ،

وأخبرني متى ستقلع طائرتك؟» ، نفث آخر نفس من سيجارته وراح يطفئها بالمنفضة : «بعدكم بيومين . . سأقضيها بالتسكع على ضفاف السين» .

تجرعت ما تبقى في القدح . . وقفت استعدادًا للذهاب .

«دعنا نتحرك ، فلا أريد أن أتأخر الليلة فأمامنا سفر مبكر غدًا ، أنا وعزيز . .» ، تركنا المقهى وسرنا باتجاه الضفة الأخرى من النهر ، حيث كنيسة نوتردام التي كانت ساحتها تغص بالسياح القادمين في محاولة خيالية ربما للقاء أحدبها ، الذي انتحر على عتباتها . رائحة المطر المتساقط قبل ساعة بدأت تتلاشى تدريجيًا . «هل أخبرتك بنظريتي الجديدة . .» ، أردف قائلاً . هززت رأسي بلا مبالاة أو ربما للإجابة بالنفي . . أخذت نفسًا عميقًا وأجبت . . «كلا لم تخبرني . .!» أجاب : «حسنًا . . هي كالتالي . . النظرية الوردية . تخيل معي أنك تستيقظ صباحًا ، وبدلاً من أن ترى الأشياء والعالم من حولك بألوانها الحقيقية ، تراها باللون الوردي ، وأن العالم أصبح ورديًا ، وأن الناس أصبحوا ورديين ، وأصبحوا يتصفون بنعومة وسكينة هذا اللون الجميل ، وأن علاقاتنا أصبحت وردية . . . . . .»

صوت سيارة الشرطة المارة بسرعة شل ما تبقى لدي من حواس . . .

***

البحر كان هادئًا هذا الصباح . . الباخرة تقترب من الميناء ، وأبراج (ذات العماد) بدت تلوح في الأفق ، وبالقرب منها فندق باب البحر ، طرابلس تبدو بهية ورائعة في هذا الصباح الخريفي الصافي ، الكثير

من الشباب راحوا يستعدون ببضاعتهم التي جلبوها معهم . .

وصولنا إلى جزيرة مالطا بالأمس كان سلسًا على الرغم من التفتيش الدقيق الذي أجري لنا قبل دخولنا الباخرة التي ستقلنا إلى طرابلس . بعد ليلة هادئة ونوم جيد على سرير حقيقي ، بعد أن قضينا ثلاث ليال على كراسي مطار (شارل ديجول) غير الصالحة للاستعمال الآدمي ، بدا وكأننا لم نغادر طرابلس بالمرة . . بدأت الباخرة تناور للرسو بالميناء . حملت حقيبتي ، بينما كان عزيز يلحق بي حتى وصلنا إلى بوابة الباخرة الرئيسية ، عدد كبير من الشباب كان يتجهز للخروج بحقائبهم الكبيرة ، والمليئة بالبضائع المجلوبة من مالطا ، تركيا ، تايلاند وحتى الصين . تلمحهم يسرعون للوقوف خلف بوابة السفينة ، عدد كبير منهم كان قد أفرغ بضاعته من السجائر المستوردة والحلوى والملابس من صناديقها الكرتونية ؛ ليقوموا بترتيبها في حقائبهم ليسهل تفتيشهم ، ومنح بعض الهدايا لمعارفهم في الميناء للخروج بأقل الخسائر ، ومن ثم الحصول على ربح ولو قليل في السوق .

ما إن فتحت البوابة ، حتى خرج العشرات من الركاب مسرعين إلى عنبر الجمارك لتجنب الزحام ، وقفنا في طابور يؤدي إلى داخل المبنى في انتظار دورنا للمرور على ضباط الجمارك ، لم يمر وقت طويل ليصل دورنا ، أمامي كان أحد الشباب ، الذي يبدو أنه لم يتجاوز السابعة عشرة يلملم حقيبته التي تبعثرت ، قمصان وملابس مختلفة الأشكال والألوان ، بالقرب من الضابط كانت هناك كومة من الصحف والمجلات التي تمت مصادرتها ، كنت أعرف أن هذا سيحدث لذا تخلصت من الجرائد العربية والإنجليزية التي رافقتني طيلة مدة

إقامتي المؤقتة بالمطار الباريسي . وصل دوري ، حاولت أن أكون بشوشًا ولبقًا . . لكن لا علامة تدل أن هذا سيجدي ، لذا فتحت حقيبتي التي قلبها الضابط هنا وهناك ، وعندما لم يجد شيئًا ذا قيمة أمرني أن أفتح حقيبة الكتف التي تحوي كتب الدراسة . طلب أن أخرجها لكي يقلبها . ابتسمت له وعلقت :

«كتب دراسة . . يا أفندي . .» ، رماها جانبًا ورد بامتعاض . . «حسنًا . . حسنًا . . بإمكانك الذهاب الآن» ، لملمت الكتب وحملت الحقائب وتوجهت إلى شباك أمن الميناء للحصول على ختم الدخول ، لكنني لم أخطو خطوتين حتى سمعت صوتًا جهوريًا ينادي بهلع . .

«أيها الشاب ، توقف ، إلى أين أنت ذاهب» ، وحيث إنني لم أكن لوحدي في هذه الفوضى ، تابعت سيري . . إلا أنه وضع يده على كتفي . . التفتّ إليه وقال :

« ماذا . . ألم تسمعني أنادي عليك . .؟» ، رددت : «آسف ، لم أعتقد أنك تقصدني ، خير ماذا هناك؟» ، أشار بيده إلى جيب سترتي «ما هذا؟» ، أجبته : «ماذا تقصد؟» ، رد وهو يمد يده : «هذا الذي بجيبك . .» ، وضعت حقيبتي على الأرض واستخرجت رواية باللغة الإنجليزية وأجبت ببلاهة :

«آه . . هذا مجرد كتاب . . رواية» ، رد بامتعاض : «دعني أر . .» أمسك الكتاب بالمقلوب وراح يتصفحه بلا مبالاة ، ثم مده لي . . «ماشي . . ماشي . . بإمكانك الذهاب» .

ارتفع في تلك اللحظة صوت صافرة الباخرة ليشل ما تبقى مما تبقى من حواسي المعطلة . . لأخرج إلى الشارع بمحاذاة محطة سيارات الميناء ، أنظر إلى السماء ، إلى البحر ، إلى الطريق ، إلى وجوه

الناس ، فأراها بلون وردي باهت ، رائحة البحر وردية والشمس تلقي بحممها الوردية ، حتى وجه أخي الذي أتى لاستقبالي بدا ورديًا ، ابتسمت له . . وقلت : «هل سمعت آخر نكتة . . . . . » ، لم أجد فرصة لأبدأ بسردها ، فقد وجدت الجميع يسقطون من شدة الضحك . . أخذت نفسًا عميقًا ، شعرت بمرارة وردية في حلقي ، ولكنني شاركت الجميع ضحكهم . . .

سـراب

رؤية : عادل عزيز[1] وغازي القبلاوي (نص مشترك)

بدأت في يناير ٢٠٠٣ . . . لن تكتمل بعد . . .

---

(١) عادل عزيز : طبيب وباحث من ليبيا يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية .

نفض كل الغبار عن كاهله ، حاول مداراة البقع الكثيرة والمتناثرة على ملابسه ، تجهز للخروج . . . لم يوهن من عزمه كثرة الخيبات ، كان يسكن الأمل ، يتغذى بالحلم ، وينام على الأمنيات السعيدة . . . . كانت النعمة التى يمتلكها ، وكان يردد بينه وبين نفسه : (هذه هي النعمة التي لو علمها الحمقى ، أقصد الملوك ، لقاتلوني عليها بالسيف!!!) . .كان مطمئنا مرتاح البال أو هكذا يظن . . . .

في أول الشارع وقف عند الإسكافي ليأخذ حذاءه ، ثم وقف عند عربة بائع الفول ليشتري منه ما يسد به رمقه . . . كانت الدينارات القليلة في جيبه تشعره بالأمان . . .

ومن دون أي سابق إنذار ، وقعت عيناه عليها . .!!

لم يستطيع أن يمنع نفسه من التمعن في تفاصيلها ، وبكل تواضعه المعهود لحق بها ورآها وهي تركب السيارة الفاخرة . . . تعثر بظله ، بقيته التي علقت بها لم تمنحه سوى أن يستمر في السير ، وطيف تلك المجهولة يلاحق ذرات خلاياه . أحس أنه يعرفها ولكن أين ومتى كان ذلك . . في حياته السابقة لم يكن يلقي مثل هذه الأسئلة ؛ فقد اعتاد أن يمضي دون ان يلتفت وراءه ، يمضي حيث يجب أن يتابع الطريق . . لم يعبأ يومًا بكلام الأصدقاء من حوله ،

يجلس مثل صخرة يشاهد ما يحدث أمامه ، يلقي عليه هذا أو ذاك قصته مع هذه أو تلك ، يهز كتفيه ، يزم شفتيه ويتمتم بخفوت : «تفاهة . .!» . كان الجميع يسيرون في طرق أخرى تبدو له مهلكة أو أقل ما يقال عنها ، إنها غير واقعية ، لكن في ذلك اليوم الذي تعثر بظله ، تعثر بقلبه . . . لم يكن سقوطه ذاك كأي سقوط ، إنه العبث الذي يكتنف كل الأشياء ، كانت التناقضات تملأ التفاصيل . . .

أصبح في خانة المهزوء بهم - من وجهة نظره هو على الأقل- وعاش هذه الحالة بكل تناقضاتها . . . لم يكن يملك من أمر قلبه شيئًا ، كان يتأنق لها كل صباح ، ينتظرها في ناصية الشارع ، كما يفعل الشبان الذين يصغرونه بعشرات السنين . كان عقله قد توارى ولا يسمع صوته ، فمن يستمع إلى هذا المارق عن سلطات القلب . . .

في اليوم الأخير قبل المائة الثانية من الحلم استفاق في فراشه ، أحس بشيء كان يخنقه ويكبت أنفاسه ، أشعل النور ، فرك وجهه عله يطرد ما علق به من بقية الحلم/الكابوس . . وقف أمام النافذة ، مطر يخضب وجه الأرض ، تساقطت مع القطرات صورتها المبللة بالبياض وآخر الفجر ، دائمًا يلاحقه ذلك الإحساس بالفقد بأنه أضاع شيئًا وأنه لا يستطيع أن يجده . . قاتمًا ذاك الصباح الذي ضاع ، قبل المائة الأولى من الحلم ، عرف مكانها ، استنجد بما تبقى من عنفوان الشمس التي تجهد للخروج من وراء الغيوم الكالحة ، ألقى كلماته للفجر : «صباحك سكر» ، ومضى تتلقفه الطرقات نحو ما اعتاده كل يوم . . . عاودته بقايا ذلك الكابوس ، لم يدرك كنهه بالتفصيل ، ولكن أحس بالضيق الذي كتم أنفاسه ، حاول تمزيق

شـروده بقـهـوة شـديدة المرارة ، ولكنهـا لم تكن أكـثـر مـرارة من أحاسيسه . . . نشر عنفوانه محاولا ترقيع بقاياه ، ولكن ما من جدوى فقد تمردت عليه سواكنه .

***

في صباح الولادة ذاك ، وقفت بالقرب من الباب ، طفلة تذهب لأول يوم للمدرسة ، وقفت تبحث عن رفيق عن أحد يضمها إلى المقعد ، لمحها ، عاد الحلم في ثانيته الأولى للسقوط عليه ، صاحت روحه ، إنها هي مرة أخرى ، بشرة شفافة من غيوم الربيع ، كستناء معرش على كتفيها ، نظرة الطفولة تذيب ثلج الليل البارد ، إنها هي ، مر اليوم الأول من التكون ، استراح لبقية اليوم ، غدًا سيقترب أكثر ، وأكثر قربًا ستكون . .

طفولتها التي أحس بها كانت نابتة في تجويفه لم يدرك كنهها ، وبكل عجائبية الأقدار ، وفي لحظة الإقفال لما كان يظنه باب الأمل ، تفتحت أبواب أخرى . . .

تمتم في داخله إنها هي ، همس لنفسه «يا إلهي» ، وبكل حيرته تلك لامس خدها الندي ، التفتت إليه وابتسمت . . . حينها أحس بالفرق ، فلأول مرة تنشد تلك الأوتار التي لطالما شهدت الارتهال ، إنها الفجر الآتي وليست ذلك الغابر . . .كان مجرد التفكير في الاقتراب منها يمنحه إحساسًا بالضياع ، بالانتفاء ، مجرد أن يفكر أن يتمنى لها صباحًا جميلاً يحيله إلى عوالمه الكابوسية المكفهرة ، لكنه في ذلك اليوم ، بعد الولادة بعشرة أيام ، منحها ابتسامة ونظرة نضرة ، وقال لها : «صباح الخير» ، ردت وهي تشع بياضًا : «صباحك صفاء» . . اتخذا طريقهما تجاه الغابة كأنهما كائنين توأمين بعثا في

الجنة من جديد لإكمال المسير : «لقد انتظرتك طويلاً» ، ردت بعنفوان الياسمين الندي ، «وأنا كنت في الموعد» . . أسرع الوقت بالعدو ، التفتت وانسابت للرحيل ، رد وهو يلامس أناملها الرقيقة ويتابع ارتعاشة في وجنتيها : «أراكِ» ، قالت «أراكَ» . . في البعيد لاح ظلها ، خرجت صرخته تلحقها لعنتها . .

هرولت في داخله كل الأمنيات ، تجرد من خوفه وهواجسه ، قرر أن يصرخ . لم تكن كل الدوائر المرتسمة حول عينيه ، ولا الترهل الذي زين جسده ، بكاف لإدراكه بالتغيرات التي شملت عالمه . . . .

لم يعد أي شيء ذا بال عنده . . . أصبح يسافر في عوالم الذهول والغيبة ، تلاشت كل الثوابت في عالمه ، ولم تكن وحدها كافية لتعوض كل شيء ، فكيف إذا فقد التواصل . . . ذلك الناحل المترهل هو ما تبقى من وجود الأمس الحالم . . . فهل تراه يستفيق؟!!

***

أتراه الحلم يستطيع أن يعتصر الخيال
خشن كان ذاك الواقع
وعادية هي الحياة من بعدها
دمار العقل أحال زمانه وزمانها إلى رفات
رماد متوقد
عند حافة الجبل
سيزيف الذي تحرر من صخرته
ينفخ في بقاياه المحترقة
عل النار تشتعل في الرماد
لكنه أبى أن يبقى في السر

السر الذي انتهى أجله
وأصبح الجميع يعرفه
غادر المكان مكانه
وبقي الزمان يعيد الحكاية
من البداية
تحت تلك الشجرة
على الكرسي الحجري
ما زالت كلماته التي نحتها على الطلاء الكابي
«للذكرى الخالدة»
لكنها لم تقرأها
وهو عاد إلى الجبل ليواصل عمله اللا مجدي
ولحقته اللعنة
ألا علي اللعنة
إنه موت أخير
يأذن للروح بأن لا تنفلت
ويعد الجسد بالضمور
وللغد بقية أخرى من رماد وصخر

***

تجلس ها هي على الكرسي الدائري ، اقترب ، توقف قبالتها ، كانت تدور فوق الكرسي ، طفلة الماضي الربيعي ، أجهشت الكلمات ببكاء العتق ، انطلقت الكلمات مبتورة الأعضاء ، مفقوءة العيون ، شبه خرساء : «كل العام وأنتِ بخير» .

غادر وراءه الكرسي يدور حول محوره ، لكنها لم تكن تجلس عليه . .

لم تكف الأضواء عن الدوران ، أشاح بوجهه عن ذلك الوجه القميء الذي رآه في المرآة ، أثلج صدره ما سمعه من كلمات حول جمالها وحسنها ، رتب الباقي من خصلات شعره ، ونطق كما لم يتكلم من قبل ، ملأه الفرح ، لقد حلت عقدة من لسانه ، فهل ستحل باقي عقد جسده !!

ظل تلك الليلة يؤرقه الفراش ، شيء ما يخزه على السرير ، بحث عنه ، دون جدوى ، وجد طريقه إلى النافذة ، يصطدم بجدار الظلام ، بقية النجوم في السماء ، بعد أن تقاطرت دمية سكوب في بداية الليل . . هناك كان نور في أحد المنازل يتماهى إلى نفسه ، أنورها ذاك ، أم أنني أصبحت سقيمًا ، إذن فالأفل مع الآفلين ، أمام السرير وجد الأرق يبتسم ، ابتسم ، سدد لكمة في الهواء ، والصرخة تبني لنفسها قبرًا من الطين تنتظر الفجيعة التي قد تولد مع الفجر . .

هدوء الليل لم يكن كافيا ليجلب له النوم وسط ذلك الضجيج الذي كان يملأ رأسه ، لم يجد سبيلا للتمييز بين الحقائق والأقاويل ، بين المعالم والأطلال ، وبين الصور والظلال ، تبدأ تلك الدوامة بهمهمات وترتفع رويدا رويدا لتصم أذنيه ، كانت في البداية يصحبها إحساسه بأن كل الأشياء تدور من حوله وتتراقص بتناسق عجيب ، والآن أضحى هذا الدوران صخبا وعبثية تبدأ من الأشياء لتنتهي عنده . . .

كان حلول الظلام إيذانا ببدء مغامرة مع تلك الأشباح التي لم يكفها نهاره ، بل سيطرت على كل دقائق ليله الطويلة ، كان يصارعها بكل ماضيه الراكد وبكل تجاربه المفرغة ، دونما بصيص بالفكاك ولا

الخلاص ، يصل به الأمر أحيانا إلى إحساسه بها تعبث بتفاصيل جسده ، يدفعها بعيدًا عنه لترتد إليه ، يصارعها بما يملك من عزم ، ولكن كان كمن يحارب ظله في وسط صحاري الصمت القاتلة . . . فهل كل ذلك كان وحده كافيا ليفعل مافعله ذلك الصباح؟!!

***

في صباح اليوم التالي ، أكان يوم العيد أم أنه يوم عادي؟ أتى المقهى ، الذي يجلسان فيه عادة ، وجدها في الركن ذاته ، تتأمل كوب الشاي ، ترفع الكيس من خيطه وتعيده في الكوب الذي تحول إلى الاحمرار ، يتصاعد بخار خفيف ، راقبها وهي تعيد هذه العملية ربما عشرين مرة ، اقترب ، ودون أن تلتفت إليه أو أن تنتبه لوجوده ، ودون أن يلقي تحيته المعهودة ، جلس على الكرسي المقابل ، استمرت هي في انشغالها بكوب الشاي ، وضعت ملعقتين من السكر ، ثم تناولت الملعقة ، وانشغلت بالتحريك ، استرعى انتباهه لون الهالة الداكنة تحت عينيها ، يبدو أنها لم تنم جيدًا ليلة البارحة ، هكذا تمتم في داخله ، توقفت عن تحريك السائل الأحمر ، استكانت ، نظرت إليه ، وقالت : «لم أكن أظن أنك تستطيع أن تتنفس من دوني» . قالتها وهي مملوءة بالغضب ، فقد ظنت طوال الوقت أنه من حقها أن تعرف وأن تكون بالنسبة إليه كل شيء ، أحكمت السيطرة على كل عوالمه ، كانت تظن أن حقيقته هو ذلك الوجود الممسوخ ، الذي يتمسح على أبوابها طلبًا للرضى والقبول . . .

لم يكن رده مفاجأة لها : «صدقيني لم أنم ليلة البارحة ، لم أستطع أن أفك أيًا من الرهانات التي تشدني إلى أطيافك التي أسرتني في الغيبة ، ولم يعد الوجود عندي إلا أنت» . . لم يرضها

رده ، أجابته محتدة : «أنا أيضًا لم أنم البارحة ، ظللت الليل بطوله ألاحق نجمة زرقاء في السماء إلى أن ظهر الخيط الأبيض» . . . ساد صمتها المؤلم ، مررت يدها على رأسها لتستقر على خدها ، أمالت رأسها . وسألته وصوتها يتهدج ، ولادة لدمعة قادمة : «هل حقًا ستسافر؟» ، وأردفت بسرعة : «كم أنا غبية فأنت ستسافر ، كان علي أن أسألك ، متى ستسافر؟» ، راحت الكلمات والأسئلة تتراكم أمامه بسرعة استمرت : «هل من المهم أن أعرف متى ستسافر؟ كلا بل أنا أريد أن أعرف لماذا؟» ، صمتها التالي آلمه ، لم يجد أمامه سوى أكوام الأسئلة ، ولا إجابة . . استجدى الكلمات ، خرج الصوت مغتالاً فيه بقية من حب . . ليجيب عن سؤالها : «لماذا أريد أن أسافر؟ لأنني أحتاجُ إلى بعض الوقت بعيدًا لكي أعطيك الفرصة أن تعيدي النظر في كل شيء» ، لم يستطع أن يدرج نفسه في إجابة سؤالها إلا كقيمة سالبة لا تريد شيئًا بل يُراد منها أشياء . . . كان منطقه هذا يثير أقصى درجات حنقه عندما يكون لوحده ، ولكن معها لا يستطيع أن يكون إلا هكذا . . . غالب نفسه وجمع شتاتها ، تمنى لها حظا سعيدا ومضى . . . يجر أقدامه بعيدًا وهو ممتلئ بكلام كثير . . . ولكنه تذكر أمرًا كان لزامًا عليه أن يقوله ، عاد أدراجه ووجدها لا تزال في جلستها تلك ، فقال لها : «كان يجب أن أقول لك هذا منذ وقت طويل ولكنني كنت أجبن من قوله ، أو ربما لأنني استطعت أن أستجلب شجاعة جبانة في زمن الفرار هذا» ، أخذ نفسًا عميقًا . . أحس بأنفاسها تفني حضوره ، صرخ الصوت ، في داخله لم يستطع أن ينطق بالكلمة السحرية التي كانت ستطلقه من لعنتها . . تراجع وقبل أن يلتفت ويمضي هاربًا صرخ : «تبًا لي . .» وقفت ، تفصد وجهها ، التمعت

عـيناها ، لحق بصـرها به وهو يمضي لا يلوي على شيء ، جلست ، أمسكت بكوب الشاي البارد ، ارتشفت بعضًا من السائل الأحمر ، وهي تغالب البكاء ، نزل في حلقها باردًا . . .

***

في تلك الليلة وقفت عند نافذتها تتأمل أضواء الألف الثانية من الحلم تلتمع في أفقها الموهوم ، تأملت وجهها المنكس على الزجاج في خلفيـة الظلام ، تذكرت ما قاله في ذلك اليوم البارد قرب البداية ، «في البدء كانت فاطمة . .» ، ابتسمت لصورة الأمس الأول ، خرج من شفتيها هواء الليل البارد . . ردت هي عليه : «في البدء كانت فاطمة وبعدها تكونت عناصر الأشياء . .» هذه الكلمات لطالما قصرت عليها ليالي الأرق الطويلة . . .

كان هو تجربتها الأولى والتي تتمنى أن تكون الأخيرة . . . فلماذا لم يستطيعا أن يخلقا أبجديتهما الخاصة؟

سؤال طاف في ذهنها حينما سمعت جرس الهاتف يرن . . التفتت ناحية الهاتف الذي كان لايزال يمارس طلبه للرد عليه . . اقتربت منه ، مدت يدها ناحية السماعة ، أمسكت بها ، تمنت أن يتوقف عن الرنين ، لتجنيبها ألم الحديث . . ما إن قررت أن ترفع السماعة حتى توقف الرنين . . أطلقت تنهيدة راحة مؤلمة ، تراجعت إلى الشرفة ، تولت بالركن ، رفعت نظرها إلى السماء المظلمة ، لمحت النجمتين ، واحدة زرقاء وأخرى حمراء . . ذاك هو وتلك أنا . . تمتمت ، فجر البداية يلوح ، يلقي بذكراه على ترقبها الممض . . في ذلك اليوم الأول ، عندما سألها عن اسمها فنظرت ناحية إلى ما خلف نظارته ، ونطقت باسمها «تماضر» ، تعجب كثيرا عندما سمع اسمها

لأول مرة ، فلم يكن يعرف له معنى ولا يذكر له تاريخا . . . كانت تنظر إليه بإعجاب وهو يكرر دائما أمامها رغبته في تغييره إلى (الخنساء) التي يعرفها الجميع . . لا تماضر تلك التي لا يذكرها إلا مرتدو البذلات الأنيقة ، والذين لا يتذوقون الحب إلا في سياراتهم وأنديتهم الفاخرة . . لم تكن تلك الكلمات بالنسبة لها مجرد تفريغ للمكبوت ، بل هو تعبير حضاري عن الرفض الذي لم يتجاوز التعبير ، والذي يعكس حس الإنسان بنفسه . . . هكذا كانت تفهم كلماته . . . حتى ذلك اليوم . .!!

***

يتساكن الرماد والألم
تتفتق الضلوع عن صراخ صامت
تتنهد هي دموعا
وأتنهد أنا شرودا
ونستمر في نثر الغيوم على وجوه الحاضرين
تضحك زهرة
تستدير دمعة
يأفل يوم مبهج ويقبل التشاؤل المقيت
وبعد ذلك كله تظل المراجيح تهتز بنا
اعذريني على البوح الذي أحبه وترهبينه
اعذريني على الصمت الذي أكرهه وتتقنينه
اعذريني على كل لحظة لم أذكرك فيها-وأنت ترسمين كل لحظاتي-

***

ينسحب ذلك كله إلى المناطق الباهتة ، حالما نتقاسم ذلك الفنجان الوحيد . . لم تفهم يوما تلك النادلة قصة فنجاننا الوحيد الذي نملأه مرات ومرات وكأننا نتعمد إتعابها . . كنت أتعقب كل الآثار التي تتركينها على حوافه . . . ألامس من خلالها كل أحلامي بك . . . وأنشر أسراري على مرأى ومسمع من هواجسي ومخاوفي . . . وأذيع دفئك الجميل على آذان المرتجفين . . .

***

عندما تلقت المظروف في صباح عابث ، لم تتخيل أنها ستتلقى هزيمتها الأخيرة من يديه ، من أنامله وهي تخط رسائله الواحدة تلو الأخرى في ذلك المكان البعيد ، وراء البحار ، وسط المحيط ، يكتب رسائل لها قد تصل وقد لا تصل . . . بدأت بقراءة الرسائل . . . الأولى بدأت بإهداء واستمرت بعدها في القراءة . .

***

إلى التي لم يحن أوانها بعد . .

تحية وبعد . . .

لا أدري بم أبدأ رسالتي الأولى هذه . . حتى إنني توقفت عند بماذا أناديك في أولى هذه الأوراق . . منذ مدة وأنا أتحين الفرصة لأكتب لك ولكن الزمن هنا يجري مخلفًا أوراق الخريف ورائي . . ولكن ها أنا ذا بعد جهد . . أبدأ . . ولا يهمني متى أنتهي ، فسؤال النهاية لم يعد يعنيني . . ما يخصني الآن هو البدايات وحسب . . .

أيتها المجهولة . . . كان صباحًا باردًا جدًا . . وأطياف الكائنات التي كنت أعرفها لم تظهر هذه الليلة . . ربما أصابها البرد بالجمود أو ربما شاءت أن تمنح نفسها مكانًا أكثر دفئًا . . لكنك لا تزالين تحيين

بداخلي . . تتنفسين معي هوائي الشحيح ، وتتدفقين مع خلايا دمي النابض بقوة . . دمي المتمرد على سلطة الحد . . من الأوردة والشرايين . . وربما سيأتي اليوم الذي تنفجرين في تلافيف الرمادي بكاءً دمويًا يدعو للحياة . .

هذه رسالة أولى . . أكتبها من أجواء المستشفى المركزي هنا . . قد تكون الأولى والوحيدة وقد تلد المزيد . . فكما قلت في وقت ما لم يعد يهمني تذكره . . إنه لم يهمني شيء . . فقط أن أمسك بنظرة للبراءة في عينيك . . فهل ستمنحينني تلك النظرة . . صغيرتي الرائعة . . يا نبضي .

***

الرد على رسالته (رسالة لم تصلني بعد) :

بسم الطفولة الجميلة التي تكتب باسمها ولم تستطع يوما أن تغادرها ، أكتب ردي هذا المسكون بهواجس الاشتياق إلى دفئك في عالمي الثلجي ، وتجلياتك في عالمي الصامت . .

لم تكن يوما البدايات هاجسي ولا النهايات سؤالي ، كنت دائما أحبك وأعشقك لأن العالم من دون حضورك الجميل وإشعاعك المتألق عبثية لا تستحق العناء . . . دوما أحببتك لأنك أهل لذلك ، وانتظرتك لأني أفقد أناي إلا بك . . . لم أفهم سؤال صديقاتي : «وماذا بعد ذلك؟» ، لم أكن أظن أننا نحب أو لا نحب بحثا عن النتائج أو طلبا للنهايات . . .كنت أبحث فيك عن نفسي وسبب وجودي!! وكانت دائما الإجابة الأكثر إقناعا لأسئلتي . . .

كنت أجالس قلقي وانتظاري لساعات وأيام طويلة انتظارًا لحبك ، الذي تأخر ومجيئك الذي يراود لوعتي . . . وعندما حانت ساعتي لم

تكن قط تلك البداية ، فلقد كانت في حقيقتها نهاية الانتظار الطويل ، وتواصلاً مع صورتك الناعسة في حنان داخل أزقة ذاكرتي المتأنقة بك .

كانت كل خلايا جسمي تختزن صورتك ، تحن إلى دفء ملمسك ، وتجن برائحتك التي تفوح تعففا . . .

لم أظن أنني سأستمتع بابتعادك وأنت بجانبي ، وأنا أبحث عن ذاتي السريعة الذوبان في بحارك الشبقة . . لم أتخيل في أية لحظة أن التناقضات الأكثر صخبا التي يستفزها حضورك ستصبح متعتي الأجمل ولذتي الأعذب . . . كنت في كل لحظة سبب الحياة والشقاء والبقاء ، وأحب كل ذلك لأنه بك ومنك وإليك . . . لا أريد أن أتوقف ولكن لا بد لي من ذلك . . فإلى لقاء حتى آخر دمعة من محابر الصمت الشهي .

المنتظرة دائما . . . السكون المرتجف

***

حبيبتي الغالية . .

مساؤك سعيد . . .

اليوم . . . أو الليلة - لا فرق - احتجت إليك ، منذ وقت طويل وأنا أحاول أن أكبت مشاعر الاحتياج إليك . . كم أنا ضعيف أمامك . . لا شيء يعوض وجودك . . حتى كلماتي المتبجحة باستغنائي عنك . . كذب . . ادعاء أحمق . . هروب إلى غياهب عوالمي الملعونة . . شعرت بالرعب يعتريني . . أغلقت باب حجرتي ورائي . . خرجت أردت التحدث لأحد . . فلا أحد . . لم أجد غيرك أستعين به . . أنت وحسب من يمنحني الأمان .

فتحت كوتي على آخرها . . وقفت على حافتها ، محاولاً استنشاق الحياة . . . شعرت بالشفقة على نفسي . . أكره هذا الاحساس . . ماذا تعني الشفقة على نفسي؟ . . . لا شيء مجرد إحساس بالفقد . . والاحتياج . . خطرتِ على بالي . . أحلت الجو المظلم . . الممطر . . البارد بالخارج إلى انتعاش . . إلى راحة ، وجدتني أمسك القلم . . بالحياة التي يمنحني إياها القلم . . لأكتب لكِ . . علّكِ . . .

غاليتي . . قطرة مطري الحانية . . مازلتُ في انتظاركِ . . في انتظار ظهوركِ وحتى ذاك . . أحبكِ . . .

***

تحياتي إليك (أنت وفقط . . . بعيدا عن الأسر) :

لحظتي الأجمل ، لن أتوقف عن الشكوى من تناقضاتك التي بقدر ما أعشقها أشفق عليك منها . . . لماذا تهرب من أفق البوح النقي إلى أزقة الكبت المعتمة . . . ابدأ يادفقي الهادر في رحلة الخروج الطويلة . . . اكتب أسفارك ، وانثر همومك في سماواتي المتخمة بك . . لا تذر صرحًا بنوه لاعتقالي وردعك إلا وقم بنسفه ، اصرخ في أوقات الصمت ، اسرق كل ما تمالؤوا على دفنه . . . مارس عبثك الحاذق مع كل تفاصيل لحظاتنا الجميلة . . .

لا أريدك أن تتحرر معي فقط من أغلالك ، بل من وهم أنهم قد يستطيعون أسرك . . . تحرر حتى من نفسك التي راودوها عنك . . . فالتوحد بيننا لا يكون وهم يسكنون برجفات الخوف في دقائقك وخطواتك ، ونظراتك وهمساتك . . .

لحظتي الأجمل . . فلنشرع الأبواب لكل الأسهم التي يظنون أنها تستطيع إسكاتنا . . . ولنهزم بالصفاء كل أوهام العتمة . . . واهدم يا

ألقي أروع الكهوف بداخلي لفضاءات لا مخبأ فيها منك إلا إليك ، لأنك ملاذي الأروع . . .

أحبك . . . كذلك

المسكونة بك . . . .

***

نبض قلبي . . .

تحية وبعد

إنه المرض بالوطن هذه الأيام يقلب عليّ مواجعي ، يحيلني إلى إنسان مستعد لأن يجهش بالبكاء لأصغر تفصيلة فيه . . تساءلت منذ وقت ليس بالطويل : لماذا نحب الوطن رغم أننا نسعى أغلب الوقت للهرب منه؟ . . . أجبت حينها ومازلت أؤمن أن الوطن هو التفاصيل الصغيرة ، هو أصغر ما فيه من أحلام الطفولة التي اعترتنا فيه . . أتعلمين أن مرأى الياسمين يجعلني أذوب وجدًا ؛ فلا أملك أمامه سوى أن أسقط الدمع مخافة أن أموت من الداخل . . .

حبيبتي . . لا أريد أن أستمر في لعبة التساؤلات المقيتة التي ربما كنت قد استمتعت بها فيما سبق ، أعلم أنني لا أستطيع منعها من النمو والتكاثر بداخلي ، ولكن هذه الفترة أجدني أتمنى أن تتوقف إلى حين انتهاء السؤال الكبير الذي ينتظر أن يُسأل في انتظار أن يبحث عن إجابته فيما بعد . . أتدرين لقد مرت كل الشخوص التي عرفتها سابقًا ولاحقًا ، مرت وتفاعلت وأرهقتني في أحلامي . . لكنني أشتاق لأن تظهري أنتِ . . فهل حان أوان ظهورك في أحلامي على الأقل . . هل حان . . .

***

حبيبي عذرا :

لا أظن أن الوطن هو من ينسج آلامك . . . إنهم أولئك النازفون غدرا وبشاعة من حولوا وطن الحب والأشياء الجميلة إلى مكبٍّ لقذاراتهم . . . ارفق بذلك المختبئ داخل قلوبنا كلحظة هاربة من ألم الحقيقة . . . هل تظن أن الوطن لا يندب نفسه!! . حبيبي . . الفروق الحقيقية تخلقها التفاصيل الصغيرة . . . ومن التفاصيل نفسها نتحول إلى مجانين يهربون من قصائد الوطن والحب . . . لا أظنك الآن تستطيع أن تكون شيئا غير صاحب الأسئلة الكثيرة . . . ومن حضن تلك التساؤلات يتولد النزف الجميل بداخلك ، الذي يضيء كل شيء من حولنا . . .

حبيبي . . لا تخذل الوطن . . . لا تدفعه بعيدا عن صدرك . . . ولنعانق الوطن حتى الموت . . . فنحن آخر من تبقى له !!

***

شوقي للطفولة

مساؤك رائع . .

من هنا كانت البداية . . بدايتي على هذه الأرض . . أردت أن أضمن هذا الرسائل التي قد لا تصل إليك . . علّ هذه المعلومة تكون كافية لشيء لا أعلمه . . أمر هذه الأيام بفترة عصيبة ، وربما أصعب ما فيها هو حاجتي الماسة لك ، لا أريد أن أفصل ما الذي أحتاجه منك ، ولكن مجرد أن تكوني هنا سيمنحني سببًا للبقاء والاستمرار علّ الحياة بكل قسوتها تكون أكثر رأفة بي لأنك معي .

حلمي الطفولي الذي لم يكتمل . . أمنحك بعضًا من كلمات

العمر علّ الزمن يمر ويمنحني إياك . . فلو خسرت كل شيء بعد هذه السنوات وخرجت بك فسأكون قد حققت حلمي الذي لا تمر ليلة إلا ويحوّم فوقي . . عندما تأتين ويحين أوانك ، هذا إن حان هذا الوقت ، ستعلمين أنني أتعذب وأستمر من أجل أن تتحققي . . حقيقة لا تقبل الخدش أو اللبس فيها . . وماذا هناك ليقال . . تمر أيام قبل أن أعود لكتابة رسالة جديدة ، لا لأنني مللت من هكذا عمل ، ولكن ما في القلب لا يسع كل أوراق الدنيا وأخشابها ، ويكفيني أنني أؤمن بأنك موجودة ، حاضرة تنتظرين اللحظة المناسبة لتظهري . . أحبك وكفى . . ولا شي غيرك . .

***

عثرت في داخل حقيبتها على قصاصة ورق ، لم تكن تعلم بوجودها ، فتحتها وقرأت مافيها . . . . لم تكن الكلمات التي قرأتها تختلف قيد أنملة عن ماكان يجول بخاطرها . . .

أرسلتها إليه وتمنت له حظا سعيدا ، وطلبت منه أن يقرأها على الجميع . .

***

جالسًا حد الشرفة . . ترتشف بقية الماضي . . سنة من الاشتياق واللاعودة . . تصبح كما تمسي . . تنتابك خفقة مطر عند قدوم الفجر ، تقذفك ريح شمالية إلى بحر صاخب بالصفاء ، ماسكًا بالقلم تستبيح عذرية الورق ، ناظرًا خلال النافذة ، وجوه خلفها أمامها ، بينك وبين ما سيأتي . . يا المختبئ في تجاعيد مياه البحيرة ، المحتمل الموت عند

لحظة غضب كافرة . . فاركًا عينيك مخافة انتهاء الحلم . . صورتك هناك توحي بالبقاء أسير رمادية المكان . . مخفيًا ابتسامتك المغتالة حد الحزن المقدس . . متوهمًا صورتها ، صورتهم عند ولادة اللعنة . . لاعقًا آخر الشواني قبل تمام السنة ، خطواتك على جسد البداية ، نظرتك من على السلم الصاعد نحوها ، رفعك لأصابع النصر . . يبهتون في مكانهم ، ثلاثة كانوا أم أربعة . . لم تبهت الصور والأوهام . . المزداد استمرارًا . . وجهك الذي انتابته لحظة فرح مجرمة . . تصب بقية البرتقال في الكأس ، تستمر في لعبة الكلمات ، لا تملك قلمًا أو ورقة ، تنظر إلى المرآة ، ترخي لصورتك العنان . . تصطدم ، ترتد ، تعود إلى عدد الأيام التي مررت بها ، مرت بك ، مررنا بها . . صوتهم عبر أسلاك الهاتف يزداد بعدًا وصوتها ما يزال شاحبًا . . . بريدك الذاهب وراء القارة إلى أخرى يعلق برائحة عرقك الناضح ، في وسط أرق مضنٍ عندما تشعر بالمزيد من الأيام المنتحرة . .

دعني هنا واترك المكان لآخر رشفة من عصير أو قضمة من حلوى . . اترك القلم يستبيح الورق . . وامنحني شبه حياة كانت أو ستكون ، أيها المتدفق في دمي ، المستنشق هوائيَ الأخير . . . تخلى لي عن بقيتي . . خذ بقية الصور معك . . بلا ذكرى . . بلا وهم سابق مرهق سأحيا وأستمر . . جالسًا حد المكان ، مدى الزمان . . تتآكل بلا نقصان تذوب بلا تلاش . . . مقدس هو حزنك ، ارتداؤك السواد وخطيئة هو الحنين إليها . . انقضت ساعة الوصول وقبلها لم يكن هناك من هناك ، أما ما سيكون فأجعله يتدفق مع مطر قادم . . قد تنتهي اللعنة حينها وأعود إلى تلك الوقفة عند حلم لم يبدأ ونوم

يستجدي نومه . . سأمنحك كل الحزن في الدنيا على وجه لا يعرف الحزن ، وسأتركك في رحيلي عند تلك الأرض تعانق اللاجدوى ، أيها المتبقي من حاضري القديم المتوقف عند هذه الهنا ، المتقهقر دومًا عند كابوسك الحالم . . وهمك الممض . . «جميلٌ أنت في المنفى . . قتيل أنت في روما . .»[٢] . . أترك مكاني لبقية ما في القدح من مرارة . . تتريث ، تمسح على جرحك وعلى شكل القلب المتشقق على صدغك الأيسر . . تمنحني ابتسامتك المقيتة وتتركني . . تتركني قتيلاً . . . . سعيدًا . . . وبعد . . .

---

(٢) من قصيدة أحمد الزعتر للشاعر محمود درويش .

عن الكاتب:

* غازي عيسى القبلاوي .
* ولد العام ١٩٧٥ بمدينة طرابلس - ليبيا .
* يكتب القصة والرواية والنثر ، والمقالة ، إلى جانب الترجمة من وإلى اللغة الإنجليزية .
* يعمل طبيبًا متخصصًا في الجراحة العامة .

لـه:

-(إلى متى . .؟) قصص قصيرة ، طبعة أولى ، طرابلس - ليبيا ٢٠٠١ .

- موقع امتداد : www.gheblawi.com
- مدونة امتداد : http://imtidad.blogspot.com

المحتويات

إهداء	5
انتهى . . . ابتدأ . . .	7
ياسمين . .	11
بلا رأس	17
حفنةٌ مِنْ قوسِ قُزَحْ	21
خط أحمر	29
الإمبراطور	33
الحبال	49
أصفعكم وأمضي . .!	53
ثامنهم	63
إن شاء الله تحج . .!	69
مشهدية عند حافة الجحيم	77
حلم وردي . . .	85
سراب	95
عن الكاتب	117

A FACE KNOWS NO SADNESS

SHORT STORY

وجه لا يعرف الحزن

دعني هنا واترك المكان لآخر رشفة من عصير أو قضمة من حلوى .. اترك القلم يستبيح الورق ، وامنحني شبه حياة كانت أو ستكون أيّها المتدفّقُ في دمي المستنشقُ هوائي الأخيرَ . تخلَّ لي عن بقيّتي .. خذ بقيّة الصور معك .. مقدّس هو حزنك ، ارتداؤك السوادَ ، وخطيئة هو الحنين إليها . انقضت ساعة الوصول ، وقبلَها لم يكن هناك من هناك ، أمّا ما سيكون فاجعله يتدفّق مع مطر قادم . قد تنتهي اللعنة حينها وأعود إلى تلك الوقفة عند حلم لم يبدأ ونوم يستجدي نومه . سأمنحك كلّ الحزن في الدنيا على وجه لا يعرف الحزن ، وسأتركك في رحيلي عند تلك الأرض تعانق اللاجدوى أيّها المتبقّي من حاضري القديم المتوقّف عند هذه الهُنا ، المتقهقر دومًا عند كابوسك الحالم وهمّك الممضّ .. اترك مكانك لبقيّة ما في القدح من مرارة .. تريّث ، تمسح على جرحك وعلى شكل القلب المتشقّق على صدغك الأيسر .. تمنحني ابتسامتك المقيتة ، وتتركني .. تتركني قتيلاً .. سعيدًا .. وبعد ...

ISBN 978-9953-36-169-X

9 789953 361697